جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

الكِفَايةُ التَّواصليَّةُ للخطابِ التفسيريِّ في سورةِ القَصَصِ في "التَّحريرِ والتنويرِ"
النموذجُ التواصليُّ اللسانيُّ مقاربةٌ وتحليلٌ

إعداد
د. صباح صابر حسين
أستاذ العلوم اللغوية المساعد بكلية البنات جامعة عين شمس

(العدد الثاني والأربعون)
(الإصدار الثاني ٠٠٠أكتوبر)
(الجزء الخامس (١٤٤٥هـ /٢٠٢٣م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) 2536- 9083
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٣/٦٢٧١م

الكِفَايةُ التَّواصليَّةُ للخطابِ التفسيريِّ في سورةِ القَصَصِ في "التَّحريرِ والتنويرِ" النموذجُ التواصليُّ اللسانيُّ مقاربةٌ وتحليلٌ

صباح صابر حسين

قسم اللغة العربية، كلية البنات، جامعة عين شمس، القاهرة، مصر.

البريد الإلكتروني: *Sabah.saber@women.asu.edu.eg*

الملخص:

ينهض هذا البحث المعنون بـ(الكِفَاية التَّواصليَّة للخطابِ التفسيريِّ في سورةِ القَصَصِ في التَّحريرِ والتنويرِ"النموذجُ التواصليُّ اللسانيُّ مقاربةٌ وتحليلٌ") على رؤية تحليلية لسانية معضدة بنظرية التواصل اللغوي واللسانيات الوظيفية متخذة الخطاب التفسيري لسورة القصص في التحرير والتنوير لابن عاشور(ت ١٣٩٣هـ) ميدانًا تطبيقيًّا؛ بغية استقصاء الحدث الكلامي الخطابي بوصفه منطوقات تواصلية إبلاغية. وترتكز هذه الكِفَاية التَّواصليَّة على مجموعة عناصر الحدث الكلامي الرئيسة بطرفيها:(عناصر الإرسال، والسياق الحدثي بنوعيه: اللغوي وغير اللغوي)؛لبناء عملية اتصالية تامة، يتم فيها الاعتماد على مكونات لغوية وغير لغوية، توظف في السياق الاستعمالي وفضاءاته الإيحائية الرحبة. هذا التفاعل الاتصالي يقوم فيه كل عنصر أو أكثر بوظيفة اتصالية،نحو:(الوظيفة الإقناعية)، و(الوظيفة الميتالسانية)، و(الوظيفة النصية)...،إلخ، تلك الوظائف التي تتفاوت درجات قوتها وخصائصها بتفاوت الأحداث وخصوصيتها كما هي حال الخطاب التفسيري لسورة القصص عند الطاهر بن عاشور؛ ليواجه المتلقي خطابًا تأثيريًّا يجمع بين قوة النص ونشاطِ المفسِّر، ويخضع لمضاعفة حالة الوعي والتأثر، عند تلقي النص المفسَّر؛ ليزداد الوعي انفتاحًا وتفاعلًا

ببعدٍ إقناعي، أو عاطفي تارة، وحالات متفاوتة من الرغبة والرهبة أو المفاجأة تارة أخرى، في هذا الخطاب الحواري النصي المباشر أو المستبطن. وانتهجت الدراسة المنهج الوصفي ،رصدًا وتحليلًا، مع التطبيق على النماذج الخطابية الاتصالية في تفسير سورة القصص لابن عاشور. وقد وزعت الدراسة وفقًا لمرتكزات نظرية التواصل اللغوي الآتية: التواصل اللغوي وكفايته التعبيرية، وسياق ما وراء اللغة، والوظائف التواصلية.

الكلمات المفتاحية: التفسير، التَّواصل، الخطاب، سورة القَصَص، الكِفَاية، اللسانيات.

The Communicative Sufficiency of the Interpretive (Discourse in Surat al–Qasas in at–Taḥryr wa–at–Tanwīr) The Communicative Linguistic Model Approach & Analysis

E-mail: *Sabah.saber@women.asu.edu.eg*

Abstract:

This research was entitled by "The Communicative Sufficiency of the Interpretive Discourse in Surat al-Qasas in "at-Taḥryr wa-at-Tanwīr": The Communicative Linguistic Model Approach & Analysis", is based on a linguistic analytical vision, that is supported by the theory of linguistic communication and functional linguistics, to investigate the rhetorical event as communicative and informative utterance. This communicative interaction sets on communicative function such as (meta-linguistics), (influential), (textual), etc. in which each or more elements. These functions change in its strength and characteristics according to the event and its specificity, as is the case with the religious interpretive discourse of Surat al-Qasas according to al-Ṭāhir Ibn ʻĀshūr, so that the recipient faces an influential speech that combines the power of the text and the activity of the interpreter, which is subject to doubling the state of awareness and influence, when addressing the interpreted text, to increase awareness openness and interaction with a persuasive dimension, or emotional at times, and varying cases of desire, awe or surprise at other times in this direct or introduced textual dialogue discourse.

The study followed the descriptive approach in monitoring and analysis, with the application of communicative discursive models from Surat al-Qasas. The study was distributed according to the foundations of linguistic communication theory: linguistic communication and its expressive sufficiency, metalinguistic context, communicative functions.

Keywords: *Interpretion; Communication; Discourse; Surat Al-Qasas; Sufficiency; Linguistics*.

أولا- مقدمة البحث:

إن المتتبع للبحث اللساني- على أصعدته المختلفة- يلحظ عناية الدارسين بآلية التواصل اللغوي وتوظيفها وفق طبيعة كل من المدونة والخطاب وسمت كل نموذج وطاقته التعبيرية والتفاعلية. بوصف هذا التواصل الوظيفة الأساس لأية لغة، والمبتغى المنشود تحققه لكل متكلم يسعى إلى التعبير عن مقاصده وأغراضه وآرائه. فالاستعمال اللغوي يعكس ملامح سلوك الناطقين وعاداتهم وتقاليدهم؛ الأمر الذي يعين السامع على إدراك طبيعة الأشخاص المتكلمين وسمات شخصياتهم؛ فيتخير من رصيده اللغوي ما يناسب طبيعتهم؛ فيسود الموقف التواصلي الفهم والإفهام، ومن ثمَّ التفاعل، الذي يصل إلى إنجاح العملية التواصلية بين أطرافها المشاركة.

١) إشكالية البحث:

يعنى هذا البحث الموسوم بـ" **الكِفَاية التَّواصليَّة للخطابِ التفسيريِّ في سورةِ القَصَصِ في "التَّحريرِ والتنويرِ" النموذجُ التواصليُّ اللسانيُّ مقاربةٌ وتحليلٌ**" بتسليط الضوء على الكفاية التواصلية للخطاب التفسيري لسورة القصص عند الطاهر بن عاشور، الذي يستقي مادة خطابه من القرآن الكريم ذلك المعين الذي لاينضب ولا يغيض. وقد قامت محاور هذا البحث على مرتكزات نظرية التواصل اللغوي واللسانيات الوظيفية التي تنهض على مجموعة من العناصر يحددها الموقف التواصلي، من أبرزها:

- الكفاية التعبيرية في الخطاب التفسيري تلك التي تمثلت في الحوار، الذي يشكل مظهرًا من مظاهر الكفاية التعبيرية ومحركًا للأحداث ويظهر المشاركين في الحدث الكلامي متصلين اتصالًا مباشرًا وصريحًا، وتتمثل كذلك في

الكلمات والقواعد التي يوظفها المتكلم لإبلاغ معانٍ معينة ؛قاصدًا من ورائها التأثير في المتلقي.

- **السياق الاستعمالي وفضاءاته الإيحائية الرحبة أو (سياق ما وراء اللغة)، الذي يرتكز على مجموعة من عناصر الحدث الكلامي (المرسِل والمرسَل إليه – الزمان– المكان– الأبعاد الاجتماعية والنفسية والسياسية، وغيرها).**
- **الوظائف التواصلية وأثرها الإبلاغي؛ فمن ناحية المتكلم تكمن في مقاصده التواصلية التي تؤثر في اختياراته التعبيرية، ورؤيته للواقع الخارجي، وتسمى (الوظيفة الميتالسانية)، كما تكمن – من ناحية متلقي الخطاب– في الأثر الذي يتركه مرسِلُ الخطاب في سلوكِهم، وواقعهم المعيش وتسمى (الوظيفة التأثيرية)؛ "فالجمهور لا يتفاعل مع النص أو يستجيب له إلا إذا كان ذا صلة بواقعه وحياته سواء كانت عاطفية أو اجتماعية أو فكرية، وهذا شأن لا مناص من التسليم به والإقرار بفاعليته[1]."أما الوظيفة النصية فتخصُّ الرسالة ذاتها، التي تمثلت – هنا– في هذا الخطاب التفسيري، ومعايير مقبوليته، وآليات تماسكه وعلاقته بالواقع الخارجي.**

وقد نهض البحث على رؤية تحليلية لسانية جعلت الخطاب التفسيري لسورة القصص يشكل منجزًا بحثيًّا تواصليًّا ذا أبعاد تعبيرية وأبعاد تداولية وظيفية وتواصلية.

---

[1] استقبال النص عند العرب– محمد المبارك– ط٢– المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ١٩٩٩م – ص.٨٣

٢) أهمية البحث وأسباب اختياره

تأتي أهمية هذا البحث وأسباب اختياره ،من جوانب عدة، لعل أبرزها:

- ما يمثله الخطاب الديني على وجه العموم- والخطاب التفسيري على وجه الخصوص- من أهمية عظمى؛ حيث يعدُّ مرجِعًا لكل من أُشكِل عليه أمر مسألة ما ؛ ومن ثم فهو خطاب لكل المستويات الفكرية على تفاوت درجاتها الاستيعابية.
- إلقاء الضوء على الكفاية التواصلية للخطاب التفسيري عند الطاهر بن عاشور، بوصفه مرجعًا مهما في حقل التفاسير القرآنية، وملاذًا للخاصة والعامة في العصر الحديث.
- الكشف عن وعي مرسِل الخطاب(ابن عاشور) بأهمية خطابه التفسيري، والسبل اللغوية وغير اللغوية التي سلكها؛ بغية إنجاح تواصله مع متلقي خطابه.
- إظهار ملامح العلاقة التخاطبية بين أطراف الخطاب التي يعكسها وعي مرسِله بأهمية الطرف الآخر- متلقي الخطاب- في العملية التواصلية ومراعاة حالهم؛ فيخاطب عقولهم تارة وعواطفهم تارة أخرى كما يحثهم ويقنعهم تارة ، ويرغبهم ويرهبهم تارة أخرى.
- إبراز وظيفة السياق بنوعيه :اللغوي وغير اللغوي، في الكشف عن مقاصد مرسل الخطاب، بوصفها لُب العملية التواصلية ،وتحديدها تحديدًا واضحًا لما فيها من قوة تأثيرية في المتلقين وتوجهاتهم.
- الكشف عن الوظيفة النصية الإبلاغية، التي نهضت على الربط الموضوعي بين قصتي موسى ومحمد ،عليهما السلام، والعلاقات الإحالية بين منطوقات

الخطاب التفسيري والوقائع الخارجية.

- إيضاح ما اتسم به الخطاب التفسيري لسورة القصص- التي شكَّلت موقفًا تواصليًّا قام البحثُ على مرتكزاته- من تفصيل لأحداث قصة موسى،عليه السلام، وعرضها عرضًا مفصَّلا يشرح مظاهر تنقلات أحوال النبي موسي،عليه السلام، بدءًا من إلقائه في اليم وهو رضيع ،ثم كيف كانت تربيته في قصر فرعون وكيف كان زوال ملك فرعون على يده،عليه السلام؛ بغية استقراء آليات التواصل في المنجز التفسيري للسورة الكريمة، فليس القصد عرضًا حكائيًّا، بل هو نموذج لعدة أحداث متوالية متتابعة، تشكِّل حدثًا تواصليًّا كليًّا متتامًا.

٣) **التساؤلات البحثية**:

تسعى هذه الرؤية البحثية إلى الإجابة عن التساؤلات الآتية:

- هل أظهرت النظرية التواصلية للخطاب التفسيري- وفق منهجي التنظير والتطبيق- موقفًا تواصليًّا تفاعليًّا، له أبعاده التعبيرية والمقاصدية والتأثيرية؟
- ما مفهوم الكفاية التواصلية التي اتخذها البحث مرتكزًا أساسًا لبناء عناصره التواصلية؟
- هل كان للخلفية العلمية والمعرفية المتنوعة التي حظي بها مرسِل الخطاب التفسيري(ابن عاشور) وظيفة محددة ومؤثرة في إظهار محصلته المعرفية أو مدركه بالآليات اللغوية وغير اللغوية التي تخدم الموقف التواصلي لخطابه التفسيري؟
- هل كان للحوار- بوصفه عنصرًا مهمًا من عناصر الكفاية التعبيرية- الذي دار بين شخوص الحدث الكلامي في سورة القصص دور في تحقق الوظيفة التأثيرية وإظهار قصدها التواصلي؟

- كيف أظهرت المنطوقات القولية للمشاهد الحوارية للشخصيات في سورة القصص سمات مرحلتي حياة موسى، عليه السلام،(مرحلة حياته في مصر ومرحلة حياته في مدين)؟
- هل حمل المنجز التعبيري للخطاب التفسيري لسورة القصص كثافة مقاصدية تجاوزت الحدود المعجمية إلى بواطن النفس البشرية وفقًا لمرتكزات النظرية التواصلية؟
- كيف اتخذ مرسلُ الخطاب الآليات اللغوية والبلاغية سبيلًا لمحاولة إقناع متلقيه والتأثير فيهم؟
- إلى أي مدى شكَّل عنصر المكان في هذا الخطاب التفسيري إطارًا له فاعلية خاصة؟ وهل تآلفت فيه الأحداث والشخوص المحركة لها والزمن الذي يجمعهم في آنٍ واحد؟، وما مظاهر عناية مرسل الخطاب التفسيري بعنصر المكان؟
- إلى أي مدى شكَّل عنصر الزمن في هذا الخطاب التفسيري إطارًا محدِدًا للأحداث، وما مظاهر عناية مرسل الخطاب به؟
- هل أسهمت الأبعاد السياسية والنفسية، والاجتماعية في الخطاب التفسيري لسورة القصص في كفايته التواصلية؟
- هل عكست الأبعاد الاجتماعية في الخطاب التفسيري لسورة القصص ثقافة المجتمع الفكرية وعاداته وتقاليده ومعتقداته والتفاوت بينها؟
- هل أدى الخطاب التفسيري لسورة القصص وظيفة واحدة أم كان له أكثر من وظيفة تواصلية إبلاغية؟

٤) منهج البحث وإجراءاته:

اقتضت طبيعة الدراسة انتهاج المنهج الوصفي،استقصاءً وتحليلًا، الذي يعنى بوصف الظاهرة المدروسة وتحليلها وفقًا لمعطيات الحقل اللساني الوظيفي التواصلي. وراعيتُ في ذلك ما يأتي:

- التأكد من خلو المكتبة اللغوية من دراسة لسانية تواصلية، ترتكز على الخطاب التفسيري لسورة القصص عند (ابن عاشور) في تفسيره "التحرير و التنوير" على وجه خاص وفق هذه المعالجة البحثية وذلك بالرجوع إلى مواقع بحثية متنوعة[١].
- تجنب النقد والتقويم لآراء ابن عاشور في خطابه التفسيري لسورة القصص؛ فهذا التوجه تنهض به بحوثٌ أُخَر.
- تقسيم مباحث الدراسة وفقًا لمرتكزات نظرية التواصل اللغوي الرئيسة، وهي: (التواصل اللغوي ومنطلقاته التأسيسية- سياق ما وراء اللغة – الوظائف التواصلية.)
- الالتزام بتوثيق الأحاديث النبوية الشريفة من كتب السنة الصحيحة.
- الالتزام بتوثيق الأشعار التي أشار إليها ابن عاشور من مظانها الصحيحة.
- تحرير مصطلح (الكفاية التواصلية) تحريرًا يقصد عرض رؤية خاصة له ،مفهومًا وتطبيقًا، والخروج بتحديد مفهومي شامل أسفرت عنه هذه الرؤية البحثية.

---

[١] بنك المعرفة المصري- محرك البحث جوجل- دار المنظومة: موقع: http://www.mandumah.com - http://www.ekb.eg/ . التاريخ: الأربعاء، ٢٠٢٣/٠٨/٢٣

- تحديد منهج مرسل الخطاب(ابن عاشور) في تفسيره سورة القصص وفق الواقع القرائي المتكرر للخطاب التفسيري للسورة وفيض التفسير في كل ممارسة.
- قصر غاية التحليل على مرتكزات التواصل اللغوي للنسق الداخلي للخطاب التفسيري.
- الاقتصار على عدد محدود من النماذج التطبيقية، التي تمثل الظاهرة المدروسة؛ تجنبًا لتكرار التحليل ثم تحليل ما يعلوها من أبعاد مقاصدية أو وظيفية أو نصية.

٥) خطة البحث:

وزعت معالجة هذا البحث على مقدمة ومدخل، ثم أعقب ذلك عرض المباحث، والخاتمة وقائمة المصادر والمراجع، وجاء بيان ذلك على النحو الآتي:

أولا- المقدمة: وتضمنت عرضًا لإشكالية الدراسة وأهميتها ،وأسباب اختيار الموضوع، وتساؤلاته البحثية ومنهج البحث وإجراءاته، وخطة الدراسة.

ثانيا- مدخل الدراسة: وفيه عرضٌ للمنجز اللساني الحديث من البنيوية إلى اللسانيات الوظيفية التواصلية: إطلالة موجزة.

ثالثا- مباحث الدراسة:

وشمل المباحث الآتية:

المبحث الأول: التواصلُ اللغوي منطلقاتٌ تأسيسية

المطلب الأول: الكفاية التواصلية وتحديد المفهوم.

المطلب الثاني: ابن عاشور ومنهجه في تفسير سورة القصص.

المطلب الثالث: سورة القصص مرتكزًا تطبيقيًّا وموقفًا تواصليًّا.

المبحث الثاني: سياق ما وراء اللغة وكفايته التواصلية.

المطلب الأول: عنصر الزمان في الخطاب التفسيري لسورة القصص وكفايته التواصلية.

المطلب الثاني: عنصر المكان في الخطاب التفسيري لسورة القصص وكفايته التواصلية.

المطلب الثالث: الأبعاد السياسية في الخطاب التفسيري لسورة القصص وكفايتها التواصلية.

المطلب الرابع: الأبعاد الاجتماعية في الخطاب التفسيري لسورة القصص وكفايتها التواصلية.

المطلب الخامس: الأبعاد النفسية في الخطاب التفسيري لسورة القصص وكفايتها التواصلية.

المبحث الثالث: الوظائف الإبلاغية التواصلية في الخطاب التفسيري وكفايتها التواصلية.

المطلب الأول: الوظيفة الإقناعية وكفايتها التواصلية.

المطلب الثاني: الوظيفة الميتالسانية وكفايتها التواصلية.

المطلب الثالث: الوظيفة النصية وكفايتها التواصلية.

رابعا- الخاتمة (النتائج والتوصيات):

وفيها بيان أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة والرؤية المستقبلية لها.

خامسا- قائمة المصادر والمراجع.

ثانيا- مدخل الدراسة.

المنجز اللساني الحديث من البنيوية إلى اللسانيات الوظيفية التواصلية "إطلالة موجزة".

تعرض هذه الإطلالة الموجزة المنجز اللساني الحديث وتحولاته من البنيوية إلى اللسانيات الوظيفية التواصلية، حيث شهد القرن العشرون تطورًا ملحوظًا في الدراسات اللسانية؛ متخذًا في ذلك مسارات بحثية ثلاثة:

أولها: وصفي بنيوي

والثاني: توليدي تحويلي

والأخير: وظيفي تواصلي تداولي[١].

فبرز على الساحة اللغوية الاتجاه الشكلي، الذي اتخذ المنهج البنيوي سبيلًا لدراسة اللغة بوصفها نظامًا معزولًا عن سياقه ومقصد مرسله، وذلك على يد اللغوي (فرينانـد دي سوسـير ١٩١٣م)، ومـن تبعـه مـن أمثال:(بلومفيلـد)، و(سابير)، وغيرهما، وتجسد هذا الاتجاه في محاضراته الشهيرة التي جُمعت بعد

---

[١] وقد قسمها طه عبد الرحمن إلى ثلاث مراحل:"مرحلة الداليات: ويقصد بها الدراسات التي تختص بوصف الدال الطبيعي في نطقه وصوره وعلاقاته وبهذا تكون الداليات شاملة للأقسام الثلاثة المشهورة: الصوتيات- والصرفيات- والتركيبيات. مرحلة الدلاليات: هي الدراسات التي تختص بوصف العلاقات التي تجمع (الدوال) الطبيعية و(مدلولاتها) سواء اعتبرت تصورات في الذهن أو أعيانًا في الخارج. مرحلة التداوليات: هي الدراسات التي تختص بوصف العلاقات التي تجمع بين(الدوال) الطبيعية و(مدلولاتها) وبين الداليين بها." ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام- طه عبد الرحمن- ط٢- المركز الثقافي العربي- المغرب ٢٠٠٠م- ص٢٨

وفاته في كتابه (محاضرات في الألسنية العامة)[1]، فرّق فيه بين (اللسان واللغة)، (اللغة والكلام)، (الدراسة الآنية للغة والدراسة التعاقبية)، (الدال والمدلول)؛لذا أطلق عليها الثنائيات السوسيرية؛ فقد حصر (دي سوسير) موضوع اللسانيات في اللغة بعدّها نظامًا من العلامات[2]؛ أو الدوال، فتمركز مسعى منهجه البنيوي حول تفتيت الدوال اللغوية (كلمات أو جمل) إلى عناصرها الأساسية للبحث في العلاقة التي تنظمها، والكشف عن القوانين الداخلية المتحكمة فيها؛ حيث ينظر إلى اللغة بوصفها واقعًا قائمًا بذاته يبحث فيها لذاتها[3].

بيد أن هذا المنهج قد أقصى المعنى من البحث اللساني بحجة افتقاره إلى الموضوعية[4]؛ فالبحث اللساني في هذا المسار البنيوي السوسيري قد نظر إلى الجملة أو إلى النص –كله – على أنه بنية ثابتة غير قابلة للتغيير، يُكتفي في دراسته بالنظر إلى علاقاته الداخلية بعيدًا عن الواقع الخارجي؛ فقد كان البحث اللساني القائم على هذا المنهج في أول أمره مكتفيًا "بدراسة الجملة على المستوى التركيبي ثم تجاوزها في الآونة الأخيرة إلى مستويات أعلى؛ فبرزت

---

[1] ترجمة: يوسف غازي ومجيد النصر– منشورات المؤسسة الجزائرية للطباعة– ١٩٨٦م

[2] محاضرات في الألسنية العامة– دي سوسير– تر: يوسف غازي ومجيد النصر– منشورات المؤسسة الجزائرية للطباعة– ١٩٨٦م– ص٢٧.

[3] ينظر: منهج البحث بين التراث وعلم اللغة الحديث– علي زوين– ط١– دار الشؤون الثقافية العامة– بغداد ١٩٨٦م– ص١٠.

[4] مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية قراءة في شروح التلخيص للخطيب القزويني– صابر الحباشة– ط١– صفحات للدراسات والنشر– سوريا ٢٠٠١م– ص١٥٤.

بعض المفاهيم، مثل: تحليل النص، وتحليل الخطاب، ونحو النص"[١]. حتى وصف النص على أنه ذلك النسيج اللغوي المنغلق على ذاته؛ لذلك اهتم هذا المنهج بمحاولة إدراك تنظيمه وعلاقة مستويات اللغة بعضها ببعض، مثل التراكيب...، وتحليل الروابط وتصنيفها بين هذه البنى أو تلك الجمل[٢].

ويأتي المسار البحثي اللساني الثاني متمثلًا في اتجاه (تشومسكي) ذلك الاتجاه التوليدي الذي يُعرف عند اللغويين المحدثين بلسانيات ما بعد البنيوية؛ إذ"يرجع بالدرس اللغوي من ملاحظة الظواهر ووصفها إلى محاولة تفسيرها ووضع النظرية؛ ليعصم اللغة من سكونها، ويمنحها طابعها الإبداعي الخلاق، ولذلك يعتمد في تقعيده وتمثيله على المنطق والرياضيات؛ ليضفي على اللغة الصبغة العلمية المنضبطة؛ متخذًا من الجملة أساسًا في التحليل"[٣]؛ فهذا الاتجاه يركن إلى الإنتاجية اللغوية، في المقام الأول، التي تقضي بأن المتكلم يمكنه تأليف عدد غير متناهٍ من الجمل وفهمها وإن لم يسبق له أن سمعها من قبل[٤]؛ فاللغة عنده ذات طابع إبداعي.

وعند النظر إلى أسس معالجة البنية اللغوية في هذا الاتجاه التوليدي يظهر ارتكازه على أنه "يصطنع جملًا غير متناهية، ويميل في ذلك نحو التجريد،

---

١. إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية- عبد الهادي الشهري- ط١- دار الكتاب الجديد المتحدة- بيروت ٢٠٠٤م- ص٨

٢. إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية - السابق – ص٨.

٣. إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية - السابق- ص٨

٤. ينظر: النص والخطاب والاتصال- محمد العبد-الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي- القاهرة ٢٠١٤م- ص٢١-٢٢

ويظهر ذلك في العبارة الشهيرة التي ساقها تشومسكي (Colorless green ideas sleep furiously) "تنام الأفكار الخضراء عديمة اللون غاضبة" التي تتصف بموافقاتها قواعد النحو" بيد أنها لا تدل على معنى مفهوم؛ لأن تشومسكي يرى أنه لا يمكن تشخيص مفهوم القواعدية بأنه كل ماله معنى أو كل ما هو ذو مغزى وفق أي مفهوم دلالي؛ وهذا ما أخذ على هذا الاتجاه التوليدي في أول أمره؛ مما أدى إلى العناية بالجانب الدلالي في مراحله اللاحقة؛ فظهر النحو التحويلي على أنه ذلك الاتجاه الذي يرى أن اللغة عبارة عن مجموعة من الجمل العميقة؛ مما جعله يردُّ عددًا من الجمل المنجزة إلى جملة ذات بنية عميقة، وذلك لتفسير محدودية الأصل ولا نهائية المنجز"[1]. بيد أن هذا النوع من الدراسات قد أخفق في كفايته التواصلية؛ لعدة أسباب يمكن إجمالها فيما يأتي:

- اقتصاره على دراسة الجملة مستقلة عن محيطيها المقالي والمقامي.
- خلوه من دراسة الإحالات الداخلية والخارجية، والروابط الخطابية.
- إقصاؤه علاقة النص بالواقع الخارجي ؛مما مثَّل مرحلة تستدعي طفرة لغوية جديدة تعالج هذا القصور؛ فظهرت العناية بدراسة الخطاب ،بوصفه بنية كبرى لها علاقة بالمحيط الخارجي؛ فكان المسار البحثي اللساني الثالث الذي انتقل "من علم اللغة الذي يكاد يخلص للنظام اللغوي من دي سوسير إلى تشومسكي، إلى علم لغة يركز على التوجه الاتصالي الوظيفي"[2].

---

[1] . إستراتيجيات الخطاب- السابق- ص٩

[2] .في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم- خليفة بوجادي- ط١- بيت الحكمة للنشر والتوزيع- الجزائر ٢٠٠٩م- ص٤٥

فقد بدأ (فيرث ١٩٦٠م) بتوجيه عنايته إلى السياق في تحليل النص والخطاب؛ فعُرِفَ اتجاهه بالنظرية السياقية أو المدرسة الاجتماعية؛ إذ يرى أن المعنى وظيفة في السياق تكشف عنه العلاقات بين الوحدات اللغوية وصلتها بالظروف الاجتماعية والنفسية المحيطة بها، ويؤكد (كمال بشر) منطقية نظرة (فيرث) في تحليل الخطاب؛ إذ يقول:" كان فيرث منطقيًّا مع نفسه ومبادئه حين جعل السياق (غير اللغوي) أو الاجتماعي أو ما سميناه نحن (المسح اللغوي) أساس نظرته في التحليل اللغوي. فعنده أن الكلام ليس ضربًا من الضوضاء يلقى في فراغ .ومدار فهم الكلام والقدرة على تحليله إنما يكون بالنظر إليه في إطار اجتماعي معين سمَّاه سياق الحال."[١]. ومن هذا الاتجاه واعتمادا على ضوابطه وعنايته بالسياق انبثق المسار اللساني الوظيفي التداولي؛ فأخذ يدرس اللغة في استعمالها وفي علاقتها بمستعمليها وأثرها فيهم، وأثرهم فيها،"ووصف شروط التبليغ والتواصل التي تحكم هؤلاء المتكلمين ومقاصدهم من وراء استعمال السياقات اللغوية والمقامات الممكنة التي تنجز ضمنها مواقف التواصل[٢]." ويستدعي هذا المسار اللساني التواصلي دراسة السياق الذي يتم فيه الحدث الكلامي وذلك بتحديد عناصره (المرسِل- المرسَل إليه- الوسيلة الخطابية- الهدف من الخطاب- مقصد المتكلم- تأثير الخطاب في المتلقي-

---

١ . التفكير اللغوي بين القديم والحديث- كمال بشر- دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة٢٠٠٥م- ص١٥٤

٢ . آليات التداولية في الخطاب :الخطاب الأدبي أنموذجًا- عبد القادر عواد- مجلة علامات- ج٧٤- مج١٩- النادي الأدبي الثقافي- جدة – يوليو ٢٠٠١م- ص٤٤

الظروف المحيطة بالخطاب (النفسية والاجتماعية ...، وغيرها) والضوابط التي تحكم ذلك كله.

فدراسة اللغة – إذن- دراسة صورية معزولة عن السياق الاجتماعي تبقى منقوصة ما لم توضع على محك الاستعمال، كما أن دراسة الاستعمال اللغوي لا يتم بشكل صحيح إذا عزل عن الدراسة الشكلية؛ فالجانبان متكاملان، ولا يجوز الاستغناء بأحدهما عن الآخر[1].

---

[1] . آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر- محمود نحلة- دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية -٢٠٠٢م- ص٥٣

ثالثا- مباحث الدراسة:

المبحث الأول

التواصلُ اللغوي منطلقاتٌ تأسيسية

لقد سعى اللغويون- القدامى والمحدثون على حد سواء- إلى بحث السبل اللغوية وغير اللغوية التي من شأنها إتمام العملية التواصلية- بصورتيها المنطوقة والمكتوبة- بين أطرافها المشاركة؛ فتلك غاية اللغة في المقام الأول، ووظيفتها الأولى؛ إذ تنهض بوظائف التعبير عن أغراض المتكلمين والإخبار بمقاصدهم الكلامية والكشف عن خبراتهم ومعارفهم وسلوكهم وتنظيم تفاعلاتهم والتأثير فيهم.

ويشير(أرسطو) إلى وظيفة اللغة التواصلية؛ بقوله:" اللغة وظيفة عضوية في الإنسان، وهي أساس طبيعي للفضائل والصلات الاجتماعية والسياسية"[١] ،كما أدرك ابن جني (ت ٣٩٢هـ) هذه الوظيفة التواصلية في حدّه للغة بأنها:" أصواتٌ يعبرُ بها كلُّ قومٍ عن أغراضِهم"[٢].

فالتواصل اللغوي يعدُّ فعلًا جماعيًّا يحقق أغراضًا مجتمعية؛ إذ يبدأ بمتكلم يعبر عن آرائه، ويكشف عن قدراته التعبيرية والفكرية والمعرفية والسلوكية، وينتهي بجماعة متحاورة متخاطبة تملك قبولًا أو رفضًا يجمعهم محيط تخاطبي له زمان معين، ومكان معين، وأدوار موزعة على أطراف العملية التواصلية؛

---

١. الحقوق اللغوية: حق اللغة في الوجود والبقاء والتطور والنماء والوحدة- عبد الهادي بو طالب- د. ط – دار الكتاب ٢٠٠٣م – ص١٦

٢.الخصائص- ابن جني(أبو الفتح عثمان ت ٣٩٢هـ)- تح: محمد علي النجار- ط٤- المكتبة العلمية- القاهرة ١٩٩٩م- ٣٣/١

لتحقيق أهدافها المنشودة. وساعة إخفاق أحد هذه الأطراف في إيصال مقصوده حُكِم بفشل العملية التواصلية وحيل دون إتمامها.

واجتماعية اللغة تجعلها عرضة للتطور؛ يصيبها ما يصيب المجتمعات من تطور؛ فيُستحدث في بنيتها وتراكيبها ودلالاتها بصورة مستمرة وفقا لظروف المجتمعات ومستجداتها؛ فكان لزامًا أن يسعى اللغويون المحدثون إلى التجديد والتطوير، ووضع الأطر التنظيرية لآليات التواصل اللغوي بما يخدم العملية التواصلية بين البشر ويحقق أغراضها الاجتماعية؛ فانبرت الدراسات اللسانية الحديثة منذ(دي سوسير) ومن جاء بعده إلى التجديد ورسم الإطار التنظيري وفقًا لرؤية أكثر عمقًا وشمولية مستندين إلى جهود أسلافهم؛ فوضعوا تصورًا جديدًا للخطاب اللفظي التواصلي قائمًا على عناصر سياقية وأبعاد وخلفيات متنوعة شاملة للسياقين اللغوي وغير اللغوي على حد سواء، وذلك انطلاقًا من إيمانهم بأن أية رسالة لغوية أو غير لغوية لابد أن تؤدي وظيفتها عن طريق أحد عناصرها السياقية التواصلية تلك التي جمعها (رومان جاكبسون) وشكّلت مرتكزات لنظرية التواصل اللغوي (شكل رقم (١))،في قوله:" لإعطاء فكرة عن وظائف اللغة، يبدو من الضروري تقديم نظرة موجزة عن العوامل المكونة لكل عملية لسانية ولكل فعل تواصلي؛ فالمرسل يبعث رسالة إلى المتلقي ولكي تكون الرسالة إجرائية؛ فإنها تتطلب مقامًا أو مرجعًا (context) تحيل عليه وهذا المقام قابل للإحاطة من طرف المتلقي، وهو إما لفظي أو من الممكن التلفظ به، وتقتضي الرسالة – أيضًا– سننًا أو شفرة (code) مشتركة كليًّا أو جزئيًّا بين المرسل والمتلقي وأخيرًا فإن الرسالة تستوجب اتصالًا (contact) أي قناة

فيزيائية وروابط نفسية بين المرسل والمتلقي؛ وهذا الاتصال هو الذي يسمح بالحفاظ على التواصل"[١].

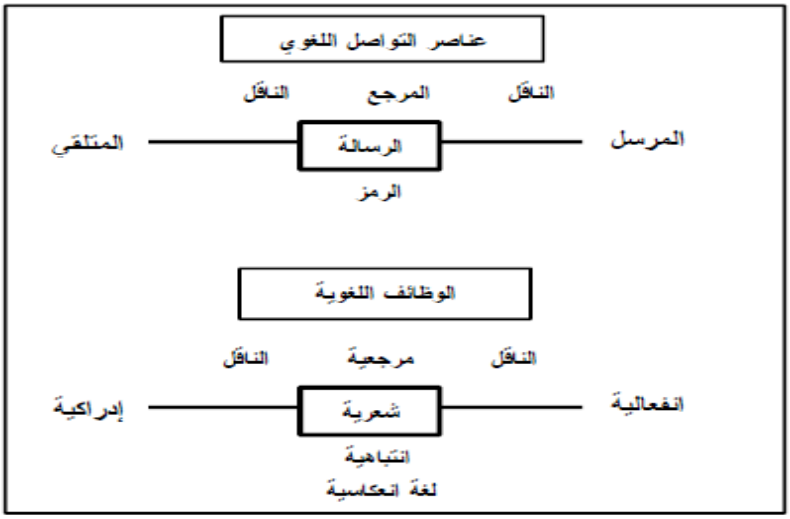

شكل(١) عناصر التواصل اللغوي والوظائف اللغوية وفق نموذج جاكبسون

فالمرسِل والمرسَل إليه وقناة التواصل، والسياق بنوعيه والشفرة ،جميعها ركائز أساسية تعين على إتمام عملية التواصل اللغوي بين الأطراف المشاركة. كما نفى (رومان جاكبسون) دراسة أي نسق لفظي خارج سياقه التواصلي، وأكد،في الوقت ذاته، تعدد وظائفه التواصلية؛ فيقول: " ...،كل سلوك لفظي لابد

[١].التواصل: نظريات ومقاربات- جاكبسون، مونان، هابرماس وآخرون- تر: عز الدين الخطابي/ زهور حوتي- تصدير: عبد الكريم غريب- ط١- منشورات عالم التربية- الدار البيضاء ٢٠٠٧م- ص٤٤٢

لـه من مآل، وكل رسالة لابد لها من وظيفة فمن الصعب- على حد قوله- إيجاد رسائل تؤدي وظيفة واحدة ليس غير"[١].

وقد رمى هذا التصور التنظيري إلى" توضيح موقع اللغة ضمن الأنساق السيميائية الأخرى، وتحديد العلاقات الوثيقة التي تربط اللسانيات بمختلف العلوم"[٢]. علّهم يُكسبون تلك ما لهذه من صبغة علمية"[٣]. وعليه فإن اللسانيات التواصلية علم يشمل كل الأنساق اللفظية؛ فلا ينبغي أن تختزل في الجملة أو تكون مرادفة للنحو: "فهي لسانيات الخطاب أو لسانيات فعل القول"[٤].

وهذه النظرة الشمولية قد أكدت أهمية عملية التواصل اللغوي بوصفها آلية للتفاهم والتعبير عن مكنونات النفس والإخبار عن المقاصد وفق عناصر مكونة لسياقها التواصلي وهدف تبغي تحقيقه ومسار محدد تسير فيه ومجال تعمل فيه وتتأثر به وتؤثر فيه ،وما إن توافرت هذه العناصر التواصلية حتى تحققت الكفاية التواصلية للخطاب- منطوقًا كان أو مكتوبًا.

- **المطلب الأول**: **الكفاية التواصلية وتحديد المفهوم**.

ويطلق عليها أيضا القدرة التواصلية، أو الكفاية التفاعلية، وتعدُّ مقابلًا منهجيًّا موسعًا لما أطلق عليه تشومسكي (القدرة اللغوية) تلك التي ينهض فيها

---

[١].قضايا الشعرية- جاكبسون- تر: محمد الولي ومبارك حنوز- دار توبقال- الدار البيضاء- المغرب ١٩٨٨م- ص٧٩

[٢].قضايا الشعرية- ص٦

[٣]. الأسلوبية والأسلوب- عبد السلام المسدي- ط٣- الدار العربية للكتاب- د.ت-ص١٠

[٤].قضايا الشعرية- ص٧

الاستعمال اللغوي على معرفة الخصائص الصوتية والصرفية والتركيبية للجملة؛ وبإهمال بيّن للاعتبارات السياقية والممارسات الاجتماعية للغة؛ مما دفع بعض اللغويين إلى الثورة على اتجاه تشومسكي[١]؛ لما يعتوره من قصور وتضييق لوظائف اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية تنمو وتتطور، ولعل أبرزهم اللساني(ديل هايمز ١٩٦٦م) الذي وسّع مجال التحليل اللساني مؤكدًا، في الوقت ذاته، قصور القواعد النحوية عن وصف السلوك اللغوي الإنساني وسبل التواصل الفعّال بين المشاركين في العملية التواصلية؛ فجاءت رؤيته شاملة النظر إلى اللغة من زوايا متعددة، ومتنوعة بوصفها ممارسة اجتماعية؛ فقد جعل الجوانب اللغوية متضمَّنة في الكفاية التواصلية متجاوزًا، في التحليل اللساني، حدود الجملة إلى الخطاب، كما شملت رؤيته التحليلية للغة قدرة المستمع اللسانية وليس المتكلم فحسب، بوصفهما – معًا – لهما وجودهما في الحياة الاجتماعية مؤثرين ومتأثرين؛ ولأن اللغة في الأساس ممارسة اجتماعية، فعندما تصل إلى

---

[١] .يسوق عز الدين البوشيخي رؤيته النقدية حول اتجاه تشومسكي، وينفي كونه نظرية؛ فيقول:"لم يقدم تشومسكي نظرية عن حقيقة القدرة والإنجاز، وإنما قدم عنهما فرضيات مصوغة بلغة مجازية إنه يتحدث عن القدرة ويقصد النحو بمعناه الضيق، ويتحدث عن الإنجاز ويقصد تجلياته النفسية، بل حين يتحدث عن الاستعمال الخلاق للغة أو مناسبة القول للمقام يقصر تحليله على مستوى التركيب ويتحاشى تحليل السياق الاجتماعي كل ذلك يصور المتكلم حرًّا في أن يقول ما تمكنه اللغة من قوله غير مقيد بالمقام التواصلي، ولا معتمد على شيء في اختيار هذا القول دون غيره- حتى إن الظن ليذهب إلى اعتبار أن القدرة النحوية توازي- في منظور تشومسكي- عدم القدرة التواصلية." التواصل اللغوي مقاربة لسانية وظيفية (نحو نموذج لمستعملي اللغات الطبيعية)- ط٢- مكتبة لبنان ناشرون- بيروت ٢٠١٢م- ص٢٨

يد اللساني وينصرف إليها واصفًا ومفسرًا لن تكون – حينئذٍ – بريئة من الاستعمال؛ فكل جملة موسومة بخصائص أسلوبية واجتماعية[١].

فمصطلح (الكفاية التواصلية) يعود في أصل وضعه إلى (هايمز) الذي عرّفه بقوله:" إنها قدرة الشخص على استعمال اللغة في سياق تواصلي لأداء أغراض تواصلية معينة أو المعرفة الضرورية لاستعمال اللغة في سياق اجتماعي بوصفها هدفًا للتواصل اللغوي أو ما يحتاج المتحدث إلى معرفته للتواصل بشكل فعَّال في بيئات ذات سياقات ثقافية مهمة، وهي – عنده – ما يمكّن أحد أعضاء المجتمع من معرفة متى يتحدث ومتى يلزم الصمت، وما الرمز الذي يجب استخدامه ومتى وأين ولمن؟" [٢] أما اللساني (فان دايك)؛ فيذكر، في سياق إشارته إلى العلاقة القائمة بين المجال النحوي والمجال الدلالي، وصفًا للكفاية التواصلية، بقوله:"إن صياغة القواعد التداولية من علم النحو تعني أن مثل هذا النحو ينبغي أن يفسر – ليس فقط– القدرة على تركيب العبارات الصحيحة، بل القدرة على استخدام مثل هذه العبارات في بعض المواقف التواصلية استخدامًا مطابقًا، وتسمى القدرة الأخيرة" الكفاءة التواصلية"[٣].

---

١ . ينظر: التواصل اللغوي مقاربة لسانية وظيفية– ص٢٨

٢ .الكفاية التواصلية بين تعددية النماذج وتناص الدلالة(دراسة في تأصيل المصطلح)– خالد حسين أبو عمشة– دار كنوز المعرفة– يناير ٢٠٢١م–ص١٧٤– رابط المقال: بتاريخ (٠٢/ ٠٥/٢٠٢٣م)

https://www.academia.edu/*59625223*

٣ .النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي– فان دايك– تر: عبد القادر قنيني– أفريقيا الشرق– المغرب٢٠٠٠م– ص٣٢

ومن اللغويين العرب من حدد مفهومها، بقوله:" هي نموذج لمعرفة كيف يقيم المتكلم اتصالا لغويًّا حقيقيًّا مع الآخرين يلائم فيه بين اللغة التي يعرفها وبين الوظيفة والمقصد وسياق الاتصال"[١]. وقد جمع هذا التحديد بين محددات عملية التواصل اللغوي.

وهناك من أطلق عليها الكفاية التفاعلية وهي في تعريف (أوكزار):"قدرة الشخص على إنجاز العمليات الاتصالية، اللغوية وغير اللغوية، متكلمًا ومستمعًا وفق مواقفها وتبعًا لقواعد الجماعة الثقافية والاجتماعية والنفسية"[٢].

وعليه فإن التحديدات المفهومية السابقة، كشفت أن الكفاية التواصلية لأي خطاب لغوي تقوم على عنصرين مهمين، هما:

- وجوب العناية بالسياق غير اللغوي واتخاذه نقطة ارتكاز خطابية ،وإبراز دوره في إتمام التواصل بين الأطراف المشاركة.
- التحليل اللغوي الناجح يشمل الإستراتيجيات اللغوية (الكلمات والقواعد التي " يجب ألا نتعامل(معها) على أساس أنها موضوعات منعزلة بل على أساس أنها وسائل يستخدمها المتكلم لإبلاغ معنى معين في إطار سياق تحدده العبارات السابقة وموقف تحدده الوسائط الأساسية لموقف التخاطب"[٣]. وإستراتيجيات (التماسك والترابط) وإستراتيجيات التواصل (السياق غير اللغوي-

---

[١] .النص والخطاب والاتصال- محمد العبد- ص٣٧

[٢] . النص والخطاب والاتصال- محمد العبد- ص١٦

[٣] . المنهج الوظيفي في البحث اللساني- أحمد المتوكل- ط١- منشورات الاختلاف- الجزائر ٢٠١٦م- ص٢٤٨

المرسِل، المرسَل إليه، الزمان، المكان، شخوص الحدث الكلامي)؛ وهذا ما أكده(هايمز) في نموذجه التحليلي الذي يوضح شروط التحدث بلغة ما بشكل صحيح؛إذ لا يُكتفى بمعرفة مفردات اللغة وقواعدها فحسب؛ بل يتعين معرفة السياق الذي ترد فيه الكلمات والجمل، وقد قام نموذجه على الجوانب الآتية[1]:

- **الإعداد (الزمان والمكان)، والمشهد (وصف للحالة أو لبيئة أو لوضع)**
- **المشاركون (شخوص الحدث الكلامي: (المتكلم والجمهور).**
- **النهايات (الغرض من الخطاب وأهدافه مع نتائج الخطاب).**
- **تسلسل الأحداث التي وقعت أثناء الخطاب وترتيبها.**
- **الآلات، ويقصد بها شكل الخطاب الذي يُلقى وأسلوبه.**
- **القواعد: تحدد ما هو مقبول اجتماعيًّا في الحدث.**
- **النوع: نوع النص/ الخطاب الذي يُلقى.**

بدا واضحًا شمول هذه الجوانب التحليلية للمحيطين اللغوي وغير اللغوي للخطاب وأهمية مراعاتهما فيه؛ إذ يعكس ذلك كفايته التواصلية.

بناءً على ذلك يمكن وصف الكفاية التواصلية بأنها: تفاعل عناصر الخطاب اللغوي في سياق تواصلي معين يشمل (المرسِل و المرسَل إليه ،والرسالة، والسياق بنوعيه: اللغوي وغير اللغوي) تفاعلًا يمزج بين القدرة اللغوية والقدرة التواصلية وينجم عنه فهم المرسَل إليه ما يريد أن يقوله المرسِل.

---

[1] . الكفاية التواصلية بين تعددية النماذج وتناص الدلالة(دراسة في تأصيل المعنى)- مرجع سابق- ص١٧٥-١٧٦

وقد لوحظ أن الخطاب التفسيري لسورة القصص- موضع الدراسة- قد راعى فيه مرسِلُه مرتكزات نظرية التواصل اللغوي التي تمثل عناصر الموقف التواصلي، ولا سيما السياق بنوعيه(اللغوي وغير اللغوي)،ووظائفه التواصلية، وألمح إلى دورهما في إتمام عملية التواصل بين الأطراف المشاركة- كما سيرد في الجانب التطبيقي- وفقًا للجوانب الآتية:

- الآليات اللغوية، ووظيفتها التأثيرية.
- الزمان والمكان والأبعاد الاجتماعية والنفسية والسياسية.
- الآليات الخطابية (التماسك النصي والمقبولية)
- التأثيرات السلوكية في المتلقين، وقد تمثل في فعل الإقناع.
- الحوار وتوزيع الأدوار، ودور الوظيفة التعبيرية للخطاب في إبراز الجو العام للمكان وما يخيم عليه من اضطرابات وقلق أو هدوء وطمأنينة، وإظهار سمات شخوص الحدث الكلامي ومنهجهم العقائدي.

- المطلب الثاني: ابن عاشور التونسي (ت١٣٩٣هـ) ومنهجه في تفسير سورة القصص:

أما مُرسِل الخطاب التفسيري - موضع الدراسة- فهو محمد الطاهر بن عاشور الذي يمثل أهم عنصر من عناصر السياق التواصلي على الإطلاق، إذ تعد حياته وسيرته سياقًا خلفيا له أثره في توجيه الخطاب وبناء رؤيته الخاصة تجاه الحدث التواصلي، ومن ثم لزم الوقوف على صورة موجزة له.

هو محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ولد في العاصمة التونسية في جمادى الأولى ١٢٩٦هـ الموافق لشهر سبتمبر ١٨٧٩م.

كان لرؤيته الإصلاحية دور في إصلاح أساليب التعليم ومناهجه وقتذاك؛ فجاء كتابه (أليس الصبح بقريب) مترجِمًا لهذه الرؤية؛ فقد حدد فيه أسباب تخلف العلوم، كل علم على حدة؛ إيمانًا منه بأن إصلاح حال الأمة لن يحدث إلا بإصلاح التعليم ومناهجه والقيام على هذا الجانب[1]. وقد سلك ابن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير[2]) سبيلا متميزة تومىء إلى رؤيته الإصلاحية التي برزت بعض جوانبها في إيضاحه منهجه العام في التفسير الذي حرص فيه على الحفاظ على القديم؛ فلا يبيده، ولا ينتقص من قدره ولكن قد يطوره ويهذبه؛

---

[1] . ويعدُّ ابن عاشور أول من حاضر باللغة العربية في تونس في هذا القرن، وقد خلَّف مجموعة كبرى من المؤلفات العلمية وصلت إلى الأربعين مؤلفًا في شتى علوم الشريعة واللغة والأدب؛ مما ينم عن موسوعيته العلمية التي سيظهر أثرها واضحًا في تحليل خطابه التفسيري لسورة القصص، فيما بعد، وقد قسَّم (المهدي بن حميدة) ،في مقدمته للكتاب، مؤلفاته على قسمين: القسم الأول: في العلوم الإسلامية، ولعل أبرزها: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد في تفسير الكتاب المجيد، المعروف بالتحرير والتنوير.- كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية- أليس الصبح بقريب، الذي سبقت الإشارة إليه- الوقف وآثاره في الإسلام- كشف المغطّى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطّأ- قصة المولد- فتاوى ورسائل فقهية- التوضيح والتصحيح في أصول الفقه- النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح، وغير ذلك مما حصره كاتب مقدمة التحرير والتنوير.أما القسم الثاني؛ ففي اللغة العربية وآدابها، ومنها: أصول الإنشاء والخطابة- موجز البلاغة- شرح قصيدة الأعشى-تحقيق ديوان بشار-الواضح في مشكلات المتنبي- سرقات المتنبي- شرح ديوان الحماسة لأبي تمام- تحقيق كتاب الاقتضاب للبطليوسي- مع شرح كتاب أدب الكاتب- شرح معلقة امرىء القيس- تحقيق شرح القرشي على ديوان المتنبي.، وغير ذلك. كما أسهم في عدد كبير من المجلات العلمية، مثل: مجلة السعادة العظمى، والمجلة الزيتونية، وشغل مهمة عضو مراسل لمجمعي اللغة العربية بالقاهرة، ودمشق ١٩٥٥م.- ينظر: مقدمة كتاب التحرير والتنوير- ص٨

[2] .التحرير والتنوير-الطاهر بن عاشور التونسي(١٣٩٣هـ)- الدار التونسية للنشر- تونس١٩٨٤م- الجزء العشرون(تفسير سورة القصص)

فيقول في مقدمة كتابه:" ...فَجَعَلْتُ حَقًّا عَلَيَّ أَنْ أُبْدِيَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ نُكَتًا لَمْ أَرَ مَنْ سَبَقَنِي إِلَيْهَا، وَأَنْ أَقِفَ مَوْقِفَ الْحَكَمِ بَيْنَ طَوَائِفِ الْمُفَسِّرِينَ تَارَةً لَهَا وَآوِنَةً عَلَيْهَا، فَإِنَّ الِاقْتِصَارَ عَلَى الْحَدِيثِ الْمُعَادِ، تَعْطِيلٌ لِفَيْضِ الْقُرْآن الَّذِي مَاله مِنْ نَفَادٍ. وَلَقَدْ رَأَيْتُ النَّاسَ حَوْلَ كَلَامِ الْأَقْدَمِينَ أَحَدَ رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ معتكفٌ فِيمَا أشاده الْأَقْدَمُونَ، وَآخَرُ آخِذٌ بِمِعْوَلِهِ فِي هَدْمِ مَا مَضَتْ عَلَيْهِ الْقُرُونُ، وَفِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ ضرٌّ كثير، وَهنالَك حَالَةٌ أُخْرَى يَنْجَبِرُ بِهَا الْجَنَاحُ الْكَسِيرُ، وَهِيَ أَنْ نَعْمِدَ إِلَى مَا شاده الْأَقْدَمُونَ فَنُهَذِّبَهُ وَنَزِيدَهُ، وَحَاشَا أَنْ نَنْقُضَهُ أَوْ نُبِيدَهُ، عَالِمًا بِأَنَّ غَمْط فَضْلِهِمْ كُفْرَانٌ لِلنِّعْمَةِ، وَجَحْدَ مَزَايَا سَلَفِهَا لَيْسَ مِنْ حَمِيدِ خِصَالِ الْأُمَّةِ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَ الْأَمَلَ، وَيَسَّرَ إِلَى هَذَا الْخَيْرِ وَدَلَّ."[١].

- **منهج ابن عاشور في تفسيره لسورة القصص**:

انتهج ابن عاشور في تفسيره سورة القصص منهجًا متكاملًا يعكس خلفياته المعرفية المتنوعة على المستويات اللغوية والفقهية والاجتماعية والإصلاحية، وغيرها.

ويمكن إيجاز أبرز ملامح منهجه وفق ما لوحظ في خطابه التفسيري للسورة على النحو الآتي:

- استهلَّ ابن عاشور خطابه التفسيري ببيان ترتيب السورة الكريمة بين سور القرآن الكريم، وفي عداد النزول موضحًا عدد آياتها المكي منها والمدني، وسبب تسميتها وأغراضها[٢].

---

[١] . كتاب التحرير والتنوير – مقدمة المصنف– ص٧

[٢] . التحرير والتنوير– ٦٣/٢٠

- كشف عن العلاقات الدلالية بين سورة القصص والسور الأخرى.

فتراه يرصد علاقة الإجمال بالتفصيل بينهما؛ قائلًا:" اشتملت هذه السورة على تفصيل ما أُجْمل في سورة الشعراء من قول فرعون لموسى كما جاء في قوله تعالى: (قالَ أَلَم نُرَبِّكَ فينا وَليدًا وَلَبِثتَ فينا مِن عُمُرِكَ سِنينَ وَفَعَلتَ فَعلَتَكَ الَّتى فَعَلتَ وَأَنتَ مِنَ الكـٰفِرينَ) [الشعراء:١٨-١٩]؛ ففصلت سورة القصص كيف كانت تربية موسى في آل فرعون. وفيها – أيضا- تفصيل ما أُجْمِل ذكره في سورة النمل من قوله تعالى:(إِذ قالَ موسىٰ لِأَهلِهِ إِنّي آنَستُ نارًا) [النمل: ٧] ففصّلت المكان الذي نودي فيه بالوحي إلى أن ذكرت دعوة موسى وفرعون؛ فكانت هذه السورة أوعب لأحوال نشأة موسى إلى وقت إبلاغه الدعوة ثم أجملت ما بعد ذلك؛ لأن تفصيله في سورة الأعراف وفي سورة الشعراء. والمقصود من التفصيل ما يتضمنه من زيادة المواعظ والعبر"[1].

- أبرز علاقة التماثل الموضوعي بين قصة موسى، وقصة محمد ،عليهما السلام، في مواطن كثيرة من تفسيره؛ إذ إن المقصود الحقيقي من وراء سوق قصص الأوليين هو العبرة والموعظة من ناحية، وتسلية النبي، صلى الله عليه وسلم، والذين آمنوا معه من ناحية أخرى، كما سيرد بيانه في الوظائف النصية لهذا الخطاب التفسيري.

- عُنِي ابن عاشور بتفسير المفردات القرآنية وبيان أحكامها النحوية والدلالية؛ مستدلًا عليها بنصوص سبق تفسيرها قبل ذلك؛ فيقول في سياق

[1] .التحرير والتنوير- ٦٣/٢٠

تفسيره قوله تعالى:(نَتلُواْ عَلَيكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرعَونَ بِٱلحَقِّ لِقَوم يُؤمِنُونَ) [القصص: ٣]. ففي حدث التلاوة قيل إن: "التلاوة: القراءة لكلام مكتوب أو محفوظ، كما قال تعالى:(وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ) [النمل: ٩٢]، وهو يتعدى إلى من تبلغ إليه التلاوة بحرف(على) وتقدمت عند قوله تعالى:(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ) [البقرة: ١٠٢]، وقوله تعالى:(وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ) [الأنفال: ٢]، وإسناد التلاوة إلى الله، عز وجل، إسناد مجازي؛ لأن الذي يتلو حقيقة هو جبريل بأمر من الله، هذا كقوله تعالى:(تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ)[الجاثية: ٦]"[١].

- إن أبرز ما يتسم به منهجه في تفسيره سورة القصص كثرة الاستدعاءات النصية؛ إذ يحرص على استحضار نصوص من القرآن أو السنة أو من الشعر يعضد بها آراءه ويستدل بها على صحة رأيه أو يرجح بها رأيًا آخر؛ فيقول،على سبيل المثال، في سياق تفسيره قوله تعالى:(وَدَخَلَ ٱلمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفلَةٍ مِّن أَهلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَينِ يَقتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِن عَدُوِّهِۦ ۖ[القصص: ١٥] معلقًا على اسم الإشارة(هذا):"واسم الإشارة في مثل هذا لا يراعى فيه بعدٌ ولا قرب؛ فلذلك قد تكون الإشارتان مثماثلتين كما هنا، وكما في قوله تعالى:"لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ " (النساء: ١٤٣) ويجوز اختلافهما[٢] كقول المتلمس:

---

١ . التحرير والتنوير- ٢٠/٦٤

٢ . التحرير والتنوير- ٢٠/٦٦

ولا يقيمُ على ضيمٍ يُرادُ بهِ إلا الأذلَّانِ غيرُ الحي والوَتـدُ[1]

هذا على الخسفِ مربوطٌ برُمتِهِ وذا يُشَجُّ فلا يرثي لهُ أَحَدُ

فقد عضّد الوجه في اسم الإشارة مؤتلفًا ومختلفًا مستحضرًا لذلك نصوصًا من القرآن والشعر يستدل بها على ذلك. كما استدعى نصوصًا من السنة النبوية المطهرة استعان بها في تقوية حججه واستدلالاته، وعضَّد بها آراءه؛ فيقول في سياق تفسيره قوله تعالى:(قَالَت إِحدَاهُمَا يَأَبَتِ ٱستَأجِرهُ إِنَّ خَيرَ مَنِ ٱستَأجَرتَ ٱلقَوِيُّ ٱلأَمِينُ) [القصص: ٢٦].فالشاهد في سياق هذا الحدث: "وجعل لموسى اختيار إحداهما؛ لأنه قد عرفها وكانت التي اختارها موسى(صفورة) وهي الصغرى ...؛ وإنما اختارها دون أختها؛ لأنها التي عرف أخلاقها باستحيائها وكلامها فكان ذلك ترجيحًا لها عنده"[2].

- كما برزت رؤيته الإصلاحية في استلهامه العظات والعِبر والأحكام الشرعية من آيات سورة القصص؛ لتكون سببًا في صلاح الأمة؛ فتراه يقول معقبًا على تفسيره قوله تعالى: (إِنَّ فِرعَونَ عَلَا فِى ٱلأَرضِ وَجَعَلَ أَهلَهَا

---

[1] . ديوان المتلمس– رواية الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي، تحقيق وتعليق حسن كامل الصيرفي، طبعة معهد المخطوطات العربية جامعة الدول العربية، القاهرة–١٩٧٠م، ورواية البيت الأول:

ولن يُقيمَ على خسْفٍ يُرادُ به إلا الأذلَّانِ غيرُ الأهلِ والوَتدُ

وله رواية شائعة في كتب الشعر والمدونات:

ولا يُقيمُ بدارِ الذّلِ يعرفها إلا الأذلّانِ غيرُ الأهلِ والوتدُ

البيت من الطويل، وهو للمتلمس في ديوانه ص ٢٠٨؛ وبلا نسبة في تاج العروس ٩/ ٢٤٩ (وتد)؛ وجمهرة الأمثال ١/ ٩٠؛ والدرة الفاخرة ١/ ٢٠٣؛ ومجمع الأمثال ١/ ٢٨٣؛ والمستقصي ١/ ١٣٣.

[2] .التحرير والتنوير– ١٠٦/٢٠

شِـيَعًا) [القصص: ٤]: "وابتدئت القصة بذكر أسبابها لتكون عبرة للمؤمنين يتخذون منها سننًا يعلمون بها علل الأشياء ومعلولاتها ويسيرون في شؤونهم على طرائقها"[١]. وفي موضع آخر يذكر:" العبرة بأن وجود الصالحين من بين المفسدين يخفف من لأواء فساد المفسدين فإن وجود امرأة فرعون كان سببًا في صد فرعون عن قتل الطفل مع أنه تحقق أنه إسرائيلي؛ فقالت امرأته: (لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَو نَتَّخِذَهُۥ وَلَدا وَهُم لَا يَشعُرُونَ) [القصص: ٩]."[٢]

- كما لوحظ عنايته بالمسائل الفقهية ذات الأبعاد المجتمعية وإبداء رأيه فيها؛ فيقول ،في سياق تفسيره قوله تعالى: (وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمرَأَتَينِ تَـذُودَانِ) [القصص: ٢٣]:"وفي إذنه لابنتيه بالسقي دليل على جواز معالجة المرأة أمور مالها وظهورها في مجامع الناس إذ كانت تستر ما يجب ستره فإنَّ شرْعَ من قبلنا شرْعٌ لنا إذا حكاه شرعنا ولم يأت من شرْعِنا ما ينسخه"[٣]. كما استدل بقوله تعالى :(أُرِيدُ أَن أُنكِحَكَ إِحدَى ٱبنَتَيَّ هَٰتَينِ)[القصص: ٢٧] على جواز عرض الرجل مولاته على من يتزوجها؛ رغبة في صلاحه[٤].

فقد كشف هذا العرض الموجز عن إدراك مرسل الخطاب (ابن عاشور) أهمية الطرف الآخر المتلقي لخطابه وحرصه على التأثير فيه؛ الأمر الذي دعاه

---

١ . التحرير والتنوير- ٢٠/٦٦

٢ .التحرير والتنوير- ٢٠/٧٠

٣ . التحرير والتنوير- ٢٠/١٠١

٤ .التحرير والتنوير- ٢٠/١٠٦

إلى النظر إلى آيات الذكر الحكيم من زوايا نظر متعددة مستلهمًا العظات والعبر والأحكام الشرعية والفقهية من معينها الذي لا ينضب ولا يغيض.

المطلب الثالث: سورة القصص مرتكزاً تطبيقياً ،وموقفاً تواصلياً

- **سورة القصص: الوصف والمسمى الحدثي.**

تُعدُّ سورة القصص السورة التاسعة والأربعين في عداد نزول سور القرآن الكريم، والثامنة والعشرين في ترتيب المصحف الشريف نزلت بعد سورة النمل، عدد آياتها ثمانٍ وثمانون آية، آياتها مكية ماعدا قوله تعالى:(إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)[القصص: ٨٥] قيل إنها نزلت على النبي،صلى الله عليه وسلم،في الجحفة في طريقه إلى المدينة للهجرة؛ تسلية له على مفارقة بلده[١]. "ووجه تسميتها بهذا الاسم وقوع لفظة (القصص) فيها في قوله تعالى: (فَلَمَّا جَاءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ)[القصص: ٢٥] وهو قصص موسى الذي قصَّه على شعيب ،عليهما السلام، فيما لقيه في مصر قبل خروجه منها؛ فلما حُكِي في السورة ما قصَّه موسى كانت السورة قصصاً لحكاية قصص فكان القصصُ متوغِلًا فيها."[٢]

وقد تجلت الكفاية التعبيرية لسورة القصص واضحة في أسلوب القصّ والحكي المشوق ذي الطابع الحواري الإقناعي؛ فالوظيفة التعبيرية للخطاب- أو ما أسماه (رومان جاكبسون) الوظيفة الشعرية للتواصل اللفظي تلك المتعلقة بالرسالة ذاتها، هي:" كل خطاب موضوعه ومحوره الرسالة ذاتها كنظام من

---

[١] .التحرير والتنوير- ٦١/٢٠

[٢] .التحرير والتنوير- ٦١/٢٠

العلامات والعناصر، والذي تتم صياغته بطريقة تجعل الخطاب أبلغ تأثيرًا على السامع وإغراءً له من الناحية الصوتية"[١] – قد نهضت بها الصيغة الحوارية في السورة الكريمة؛ فمنحتها قوة إبلاغية وإقناعية،في الوقت ذاته؛ إذ يعدُّ الحوار مظهرًا من مظاهر الكفاية التعبيرية ومحركًا للأحداث؛ لإظهاره المشاركين في الحدث الكلامي متصلين اتصالًا مباشِرًا وصريحًا وفق ما اقتضته أحداث السورة، وسياقها اللغوي الذي بدأ بالإخبار بفساد فرعون وعلوه في الأرض، واستضعافه بني إسرائيل وتذبيح أبنائهم، واستحياء نسائهم، ثم إنجاء الله نبيه موسى، عليه السلام، من ذلك؛ فيأمر أمه أن تلقيه في اليم وهو رضيع ونهاها عن الخوف عليه؛ فهو، عليه السلام، في معية ربه، تبارك وتعالى، وبشّر الله، عز وجل، أمَّ موسى بأنه سيرده إليها ويجعله من المرسلين. فقد شرعت الصيغة الحوارية في السورة الكريمة ، ووفق ما أظهره ابن عاشور، في القيام بدورها المحرك للأحداث الذي كشف عن طبيعة الشخصيات المتحاورة وسماتها، ومقاصدها الحوارية وفق ما اقتضته الضمائم اللغوية (قال– قالت– قالتا– قالوا)، على النحو الآتي:

- **حوار أم موسى عليه السلام مع أخته**.

- تطلب منها أن تقصَّ أثره وتتبعه حتى عرفت أن آل قصر فرعون التقطوه، ولم يشعروا بها:(وَقَالَت لِأُختِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَت بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُم لَا يَشعُرُونَ) [القصص: ١١].

---

[١] .التواصل نظريات ومقاربات– جاكبسون، مونان، هابرماس وآخرون– تر: عز الدين الخطابي وزهور حوتي– تصدير: عبد الكريم غريب– منشورات عالم التربية– ط١– الدار البيضاء ٢٠٠٧م– ص ٤٤٢– ٤٤٨

- **حوار امرأة فرعون معه**.

- **تطلب منه أن يبقيه ولا يقتله ويتخذانه ولدًا؛ فهو لا محالة سينفعهما مادام تربى في بيتهما؛ إنْ أنزلاه منزلة الخدم سينفعهما في خدمتهما، وإن أنزلاه منزلة الولد ؛فيكرماه ويكرمهما ويجلهما وتقر به أعينهما[1].كما كشفت عن ذلك الآية الكريمة:(وَقَالَتِ ٱمرَأَتُ فِرعَونَ قُرَّتُ عَينٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَا أَو نَتَّخِذَهُۥ وَلَدا وَهُم لَا يَشعُرُونَ) [القصص: ٩].**

- **حوار أخت موسى مع آل قصر فرعون**.

في قوله ، سبحانه وتعالى:(وَحَرَّمنَا عَلَيهِ ٱلمَرَاضِعَ مِن قَبلُ فَقَالَت هَل أَدُلُّكُم عَلَىٰٓ أَهلِ بَيتٖ يَكفُلُونَهُۥ لَكُم وَهُم لَهُۥ نَٰصِحُونَ)[القصص: ١٢] ؛فقد اقتضت إرادته وحكمته،عز وجل، أن يمنع موسى،عليه السلام، المراضع ويحرمها عليه؛ لترشد أخته آل قصر فرعون وتدلهم على أهل بيتٍ كرام يكفلونه، ويحفظونه؛ فبادروا بإجابتها بعد أن قذف الله،تبارك وتعالى، في قلوبهم حب موسى، عليه السلام، والحرص على سلامته[2].

- **حوار موسى، عليه السلام، مع الذي استنصره من شيعته**.

في قوله تبارك وتعالى: (وَدَخَلَ ٱلمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفلَةٖ مِّن أَهلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَينِ يَقتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِن عَدُوِّهِۦ فَٱستَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِن عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيهِ قَالَ هَٰذَا مِن عَمَلِ ٱلشَّيطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ

---

[1] . التحرير والتنوير –٢٠/٦٤

[2] . التحرير والتنوير– ٢٠/٧١

مُّضِلٌّ مُّبِينٌ) [القصص: ١٥] . في هذا المشهد الحواري بين موسى،عليه السلام، وبين الرجل الإسرائيلي الذي وقع عليه ضيمٌ من القبطي؛ قامت الضميمة اللغوية (استغاثه) مقام قول المتأزم المكلوم المضام؛ فقد وكزَ موسى،عليه السلام،القبطي؛ فقضى عليه، وتيقن، عليه السلام، أن فعلته هذه ناشئة عن عمل الشيطان؛ لذا أجاب موسى،عليه السلام،الإسرائيلي في استصراخه الثاني بقوله:(إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ) كما صورته الآية الكريمة [القصص: ١٥] .

- **حوار موسى مع الرجل الناصح له**.

ذلك الرجل الذي جاء موسى، عليه السلام، مخبرًا إياه بما ذاع من أمر قتل القبطي حتى وصل إلى قصر فرعون؛ فطلب فرعون موسى، عليه السلام، ليقتله لقاء قتله القبطي؛ مما دفع هذا الرجل الناصح لموسى ،عليه السلام، أن يشير عليه بالخروج من مصر؛ لئلا يقتله فرعون ؛ وهو ما أوضحته الصيغة التعبيرية الحوارية للآية الكريمة في قوله تعالى: (وَجَاءَ رَجُلٌ مِّن أَقصَا ٱلمَدِينَةِ يَسعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلمَلَأَ يَأتَمِرُونَ بِكَ لِيَقتُلُوكَ فَٱخرُج إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ) [القصص: ٢٠] .

- **حوار موسى ،عليه السلام، مع ابنتي شعيب ،عليه السلام**.

وعلى ذلك جاء قوله تعالى:(قَالَ مَا خَطبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسقِي حَتَّىٰ يُصدِرَ ٱلرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيخٌ كَبِيرٌ)[القصص: ٢٣]. "فقد بدأهما موسى بالسؤال عن شأنهما ولماذا يذودان الأغنام عن السقي؛ فأجابتا بأنه لا يحصل لهما السقي حتى ينتهي الرعاءُ من سقيهم؛ فإذا كان ذلك سقيتا؛ إذ ليس لهما رجال يستطيعون مزاحمة هؤلاء الناس؛ لأن أباهم شيخ كبير، وهما لا تقويان على السقي

والمزاحمة"[1].

- **حوار ابنة شعيب، عليه السلام، مع موسى، عليه السلام.**

بعدما سقى موسى، عليه السلام، لهما تولى إلى الظل؛ راجيًا من ربه ،تبارك وتعالى، أن يأتيه من فضله؛ وهو في حاله هذه جاءته إحدى ابنتي شعيب، عليه السلام، كما صورت ذلك الآية الكريمة أبلغ تصوير وأتقنه (فَجَاءَتهُ إِحدَاهُمَا تَمشِي عَلَى ٱستِحيَاء قَالَت إِنَّ أَبِي يَدعُوكَ لِيَجزِيَكَ أَجرَ مَا سَقَيتَ لَنَا) [القصص: ٢٥] .

- **حوار موسى مع شعيب، عليهما السلام.**

قصَّ موسى على شعيب ،عليهما السلام، قصة خروجه من مصر وأسبابها، ثم مجيئه إلى مدين؛ فطمأنه شعيب ،عليه السلام، بأنه أصبح في مأمن من فرعون وقومه؛ لأن بلاد مدين تابعة لملك الكنعانيين وهم أهل بأس ونجده[2]. وهو ما عبرت عنه الصيغة التعبيرية الحوارية للآية الكريمة في قوله تعالى : (فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيهِ ٱلقَصَصَ قَالَ لَا تَخَف نَجَوتَ مِنَ ٱلقَومِ ٱلظَّٰلِمِينَ) [القصص: ٢٥] .

- **حوار ابنة شعيب، عليه السلام، مع أبيها.**

طلبت ابنة شعيب من أبيها أن يستأجر موسى، عليه السلام، ؛ لما رأت منه من المروءة والشهامة، والفتوة والأمانة؛ وفقا للصيغة التعبيرية للآية

---

[1] .ينظر: التحرير والتنوير- ١٠٤/٢٠

[2] .التحرير والتنوير- ١٠٠/٢٠

الكريمة، في قوله تعالى:(قَالَت إِحدَاهُمَا يَاأَبَتِ ٱستَأجِرهُ إِنَّ خَيرَ مَنِ ٱستَأجَرتَ ٱلقَوِيُّ ٱلأَمِينُ) [القصص: ٢٦] .

- **حوار شعيب مع موسى، عليهما السلام.**

طلب شعيب من موسى، عليهما السلام، أن يأجره ثماني حجج لقاء أن ينكحه إحدى بناته فإن أتمَّ عشرًا؛ فهذا فضل من موسى وكرم، ولن يكلفه شعيب بأعمال شاقة وإنما سييسر عليه ويكرمه بحسن معاملته[1].وهو ما كشفت عنه الصيغة التعبيرية الحوارية للآية الكريمة في قوله، سبحانه وتعالى: (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَن أُنكِحَكَ إِحدَى ٱبنَتَيَّ هَاتَينِ عَلَىٰ أَن تَأجُرَنِي ثَمَنِيَ حِجَجٍ فَإِن أَتمَمتَ عَشرًا فَمِن عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَن أَشُقَّ عَلَيكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ قَالَ ذَٰلِكَ بَينِي وَبَينَكَ أَيَّمَا ٱلأَجَلَينِ قَضَيتُ فَلَا عُدوَانَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) [القصص: ٢٧-٢٨]. فقضى موسى أبعد الأجلين وسار بأهله إلى مصر[2]، قال تعالى: (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلأَجَلَ وَسَارَ بِأَهلِهِۦ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا)[القصص: ٢٩] .

- **حوار موسى، عليه السلام، مع أهله.**

وذلك في قوله تعالى:(قَالَ لِأَهلِهِ ٱمكُثُوٓاْ إِنِّي ءَانَستُ نَارًا لَّعَلِّي ءَاتِيكُم مِّنهَا بِخَبَرٍ أَو جَذوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُم تَصطَلُونَ) [القصص: ٢٩] ،ولما توجه موسى،عليه السلام، إلى النار ؛ليأتي بجذوة منها ليستدفئوا بها أو يجد على

---

[1] . التحرير والتنوير- ٢٠/١٠٥

[2] . التحرير والتنوير- ٢٠-/١٠٨

النار من يرشده أو يهديه إلى سبيله التي يبتغيها، ناداه ربه ،عز وجل، ولم تأتِ الصيغة التعبيرية (قلت) لنداء المولى ،عز وجل، موسى،عليه السلام، في سورة القصص؛ وإنما اكْتُفِي ببناء فعل النداء للمجهول(نُودِي) للعلم بالمنادِي، أما في التعبير الحواري الخاص بالمنطوق القولي لموسى ،عليه السلام، فجاءت معه الضميمة التعبيرية الحوارية (قال).

- **حوار موسى مع ربه ،عز وجل.**

بعد النداء الإلهي الأعظم؛ تلقى موسى من ربه،عز وجل، إخبارًا،وأوامر، وبشارات، وإعانات، صورتها الصيغة التعبيرية الحوارية للآية الكريمة: (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴿٣٥﴾)[القصص: ٣٠-٣٥] . ففي هذا النداء الأعظم أخبر الله – عز وجل– نبيه موسى ،عليه السلام، بألوهيته وربوبيته التي لا ينازعه فيها أحد ؛ الأمر الذي يستوجب من موسى عبادته وحده لا شريك له، وكثرة ذكره ،وقد وعده الله أن يكون معه ويشد عضده بأخيه هارون، وفي النهاية سيكون موسى ومن اتبعه هم الغالبين.

- **حوار موسى،عليه السلام، مع قوم فرعون.**

ذلك المشهد الحواري الذي صورته الصيغة التعبيرية للآية الكريمة: (فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ) [القصص: ٣٦-٣٧].

فهنا يشير الحوار إلى اتخاذ قرار محدد من قبل نبي الله مع قوم فرعون؛ فقد لبى موسى،عليه السلام، أمر ربه ومضى إلى فرعون وقومه وجاءهم بالحجج القاطعة والأدلة البينة والمعجزات الواضحة المثبتة صدق دعوته؛ فكذبوه وقالوا: إنه كلام مفترى وقول باطل مفتعل لم نسمع به فيمن مضى من أسلافنا؛ فأخبرهم موسى،عليه السلام، بأن الله وحده الذي يعلم من منَّا أهدى سبيلا، ووحده، سبحانه وتعالى، يعلم أن العاقبة الحسنة الحميدة لنا، والفوز والغلبة لنا ؛أما الظالمون فلا نجاة لهم من العذاب، ولا فلاح لهم في الدنيا والآخرة ؛فلهم الخسران المبين[1].

- **حوار فرعون مع قومه ووزيره.**

لقد تجرأ فرعون على خالقه جرأة عظيمة لم يبلغ مبلغها آدمي قبله ولا بعده؛ فقد نادى في قومه السفهاء الضلال الضالين أنه وحده إلاههم المعبود؛ فهو لا يعلم لهم إله غيره؛ ولكي يثبت لقومه صحة معتقده أمر وزيره(هامان) أن يجعل له بناءً عاليًا من الطين؛ ليتحقق من هذا الزعم الذي زعمه موسى

---

[1] . ينظر: التحرير والتنوير- ٢٠/١١٨-١١٩

ويبرهن لهم أنه لا إله غيره، كما أظهرته الآية الكريمة:(وَقَالَ فِرعَونُ يَٰأَيُّهَا ٱلمَلَأُ مَا عَلِمتُ لَكُم مِّن إِلَٰهٍ غَيرِى فَأَوقِد لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجعَل لِّى صَرحا لَّعَلِّى أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلكَٰذِبِينَ)[القصص: ٣٨].

- **حوار قارون و قومه**.

وقد صورته الصيغ التعبيرية للآيات الكريمة:

- قوله تعالى : (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلمٍ عِندِى) [القصص: ٧٨]
- قوله تعالى : (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَومِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلحَيَوٰةَ ٱلدُّنيَا يَٰلَيتَ لَنَا مِثلَ مَا أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيم) [القصص: ٧٩]
- قوله تعالى : (وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلعِلمَ وَيلَكُم ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ) [القصص: ٨٠]
- قوله تعالى : (وَأَصبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّواْ مَكَانَهُۥ بِٱلأَمسِ يَقُولُونَ وَيكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبسُطُ ٱلرِّزقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِۦ وَيَقدِرُ لَولَا أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَينَا لَخَسَفَ بِنَا وَيكَأَنَّهُۥ لَا يُفلِحُ ٱلكَٰفِرُونَ) [القصص: ٨٢].

لقد كان من أبرز دواعي إعراض الكافرين عن دعوة أنبياء الله ورسله إليهم هو اعتزازهم وافتخارهم بكثرة أموالهم وثرواتهم ؛ظنًا منهم أنها تمنحهم القوة التي بها يستطيعون التصدي لأي مخاطر أو تهديدات كما أن هذه الأموال الطائلة التي يمتلكونها دون غيرهم بمقدرتها أن تقيهم عواقب أمورهم وتجعلهم في مأمن من الهلاك مهما عظُم.

تبين من هذا العرض الموجز أمران:

- أن الحوار يعدُّ من أبرز العناصر التي تقوم عليها عملية التواصل اللغوي في شكلها التعبيري المنطوق وتسهم في كفايتها ؛ فمقصد الحوار" الفهم والإفهام بغاية الإقناع والاقتناع بفعل أمر أو تركه"[١]. فقد أبرزت القوى التعبيرية للمشاهد الحوارية،سالفة الذكر، سمات شخوص الحدث الكلامي : المهتدين منهم والضالين؛ بغية التأثير في المتلقي بالترغيب في الخير؛ لنيل الجزاء الأوفى، والترهيب من الشر ؛ لتجنب سوء العاقبة.
- أن المنطوقات القولية للمشاهد الحوارية قد أبرزت بوضوح سمات مرحلتي حياة موسى، عليه السلام، المرحلة الأولى: حياته في مصر قبل التوجه إلى مدين، ثم المرحلة الثانية: حياته في مدين واستقراره عند نبي الله شعيب، عليه السلام، حتى انقضاء الأجل الذي تعاهدا عليه.

ففي الأولى: اتخذت الصيغة التعبيرية للمشاهد الحوارية المجالات الدلالية ذات الدلالة على الخوف والقلق والضلال والتآمر والقتل والظلم ، وغير ذلك مما بدا واضحًا من الضمائم اللغوية المنطوقة على ألسنة المتحاورين ،مثل:(قصّيه- وهم لا يشعرون- لا تقتلوه- رجلين يقتتلان- عدو مضل مبين- غوي مبين- استغاثه- فقضى عليه- يأتمرون بك- ليقتلوك- اخرج)

ثم تأتي المرحلة الثانية مرحلة حياته في مدين واستقراره عند نبي الله شعيب ،عليه السلام، فقد حملت المنطوقات القولية لمشاهدها الحوارية الدلالة على الاستقرار والسكينة والطمأنينة وإنزال الخير على موسى عليه السلام، بزواجه من ابنة شعيب، عليه السلام.

---

[١] . في أصول الحوار وتجديد علم الكلام- طه عبد الرحمن- ص٣٨

وهذه الدلالات قد صورتها الضمائم اللغوية التي وردت على ألسنة المتحاورين، مثل: (أبونا شيخ كبير- أبي يدعوك- ليجزيك- جاءته- لاتخف- نجوت من القوم الظالمين- استأجره- القوي الأمين - أنكحك إحدى ابنتي - تأجرني ثماني حجج- ما أريد أن أشق عليك - ستجدني إن شاء الله من الصالحين- فلا عدوان علي.)

المبحث الثاني

سياق ما وراء اللغة وكفايته التواصلية

إن مراعاة مرسل الخطاب للسياق غير اللغوي[١]- سياق ما وراء اللغة- وإيلاءه عناية واهتمامًا لخير عون على تقديم نسق خطابي يتمركز مسعاه في إطار خاص، تنحصر فيه الدلالات المرادة؛ الأمر الذي ينعكس على وضوح مدلولاته وفهم مقاصده، واستيعاب أغراضه؛ ومن ثم يتمكن مرسل الخطاب من التأثير في سلوك المتلقين وإقناعهم. هذا يعنى الوعي بجميع مكونات السياق ومساهمتها في تشكيل الحدث الخطابي. وليس أمر العناية بسياق ما وراء اللغة، بوصفه ركيزة خطابية أساسية تعين على الإلمام بمكنونات الخطاب ومقاصده، مقتصرًا على مرسل الخطاب فحسب؛ بل إن لمتلقي الخطاب ومحلله الدور نفسه؛ لأن "إدراك محلل الخطاب لخصائص السياق وأهميته يزيد قدرته على التنبوء بما يمكن قوله"[٢].

وانطلاقًا من أهمية إدراك السياق غير اللغوي والعناية به في إتمام العملية التواصلية بين طرفيها، بوصفه محدِدًا دلاليًّا للمقاصد الكلامية؛ تجدر الإشارة إلى أن اللغويين والمفسرين القدامى منهم والمحدثين قد أولوه عنايتهم ورعايتهم سواء كانوا منتجين للخطاب أو متلقين أو محللين أو مفسرين. ومن مظاهر

---

١. السياق غير اللغوي، يقصد به:" الظروف التي يقع فيها الحدث أو يساق فيها الكلام." – معجم اللغة العربية المعاصرة-أحمد مختار عمر- ط١- عالم الكتب- القاهرة ٢٠٠٨م- ص١١٣٩.

٢. تحليل الخطاب-ج.ب براون-ج.ب يول- ترجمة وتعليق: محمد لطفي الزليطي- منير التريكي- جامعة الملك سعود- النشر العلمي والمطابع١٩٩٧م- ص٥٠

ذلك عند القدامى ما بدا من حرصهم على معرفة أسباب النزول في تفاسيرهم لآي الذكر الحكيم؛ فمعرفة ذلك تعين على إدراك مضامين الآيات ومقاصدها السامية وما اشتملت عليه من عظات وعبر و من ترغيب أو ترهيب، وغير ذلك. كما استعانوا بالسياق غير اللغوي في رواياتهم للأحاديث النبوية الشريفة وذلك بعبارات تومىء إلى دوره في تحديد الدلالة وإيضاحها، كما بدا في قولهم: وكان،صلى الله عليه وسلم، متكئا فجلس- وظهر في وجهه الشريف الغضب- وانفرجت أساريره- وأشار بإصبعيه، وغير ذلك[١].

وقد أشار ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) إلى وظيفة السياق وأهميته في تحديد الدلالة وإيضاحها، قائلا:" السياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد...، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم؛ فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته"[٢].كما جعله المحدثون محدِدًا دلاليًّا آنيًّا؛ الأمر الذي كشف عنه قول (فندريس): " والسياق هو الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها، وهو الذي يخلق لها قيمة حضورية"[٣].

---

١ . ينظر: المعاجم اللغوية في ضوء علم اللغة الحديث- محمد أحمد أبو الفرج- دار النهضة العربية- القاهرة ١٩٦٦م- ص٩٨

٢ .بدائع الفوائد- ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر بن مسعد بن شمس الدين (ت٧٥١هـ) دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان- د.ت- ٩/٤.

٣ .اللغة – فندريس- تعريب: د. عبد الحميد الدواخلي- محمد القصاص- مطبعة لجنة البيان العربي- مكتبة الأنجلو- القاهرة- ١٩٩٥م- ص٢٢٨

كما أشار (فيرث) إلى الأشياء وثيقة الصلة بالموقف وجعلها من السياق غير اللغوي كالعوامل والظواهر الاجتماعية والسلوك غير اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي، نحو مكان الكلام وزمانه والوضع السياسي...، وكل ما يطرأ أثناء الكلام مما يتصل بالموقف أيًّا كانت درجته[١].

والمتأمل في الخطاب التفسيري لسورة القصص يلحظ عناية مرسله بسياق ما وراء اللغة؛ فقد جعله ركيزة أساسية في خطابه التفسيري مستعينًا به في تقريب الصورة إلى ذهن المتلقي وإيضاحها وإبرازها بلا لبس أو غموض من شأنهما تشتيت المتلقي؛ الأمر الذي انعكس على تفسيره وجعله محكمًا منضبطًا خاليًا من الغموض، وقد بدت عنايته واضحة، بسياق ما وراء اللغة من جوانب عدة، لعل أبرزها: عنصرا الزمان والمكان، والأبعاد السياسية، والاجتماعية، والنفسية، وذلك على النحو الآتي:

المطلب الأول: عنصر الزمن وكفايته التواصلية:

لم يغفل ابن عاشور عامل الزمن ووظيفته في إيضاح آرائه وترجيحاته التفسيرية وإحكامها وتقييدها بإطار خاص يحدد دلالاتها ويجعلها خالية من الغموض والإبهام واللبس غير محتملة التأويل أو الشك؛ الأمر الذي يسهم بشكل ملحوظ في تحقيق غرض مرسِل الخطاب من العملية التواصلية تأثيرًا وإقناعًا.

---

[١] .ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها- تمام حسان- دار الثقافة- القاهرة ١٩٩٤م- ٣٢٨

فالمتأمل في تفسيره قوله تعالى: (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ) [القصص: ١٥] يبدو له عنصر الزمن محدِدًا دلاليًا من جانبين:

الأول: تحديد مرسل الخطاب التوقيت الزمني للحدث الكلامي؛ فيقول: " وحين الغفلة: هو الوقت الذي يغفل فيه أهل المدينة عما يجري فيها، وهو وقت استراحة الناس وتفرقهم وخلو الطريق منهم، قيل: كان ذلك في وقت القيلولة وكان موسى مجتازًا بالمدينة وحده"[١].

الآخر: بيان المقصود من تحديد هذا التوقيت وسببه؛ إذ يقول:" والمقصود من ذكر هذا الوقت الإشارة إلى أن قتله القبطي لم يشعر به أحد...، ومقدمة لذكر خروجه من أرض مصر"[٢]. فخبر قتل القبطي على يد موسى، عليه السلام، لم يكن قد انتشر أو ذاع بعد، فقد تم في وقت خلت فيه المدينة من الناس.

كما حال التحديد الزمني دون تسرب الاحتمالات الدلالية إلى ذهن متلقي الخطاب وهو ما كشف عنه مرسل الخطاب من دلالة التعريف في كلمة (الأمس) في قوله تبارك وتعالى:(فَإِذَا الَّذِى اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ) [القصص: ١٨] ؛ فيقول:"والتعريف في (الأمس) عوض عن المضاف إليه؛ أي بأمسه، إذ ليس هو أمسًا لوقت نزول الآية"[٣].

---

١ .التحرير والتنوير- ٨٨/٢٠

٢ . التحرير والتنوير- ٨٨/٢٠

٣ . التحرير والتنوير- ٩٤/٢٠

وتجدر الإشارة إلى أن ابن عاشور قد وظّف عنصر الزمن للاستعانة به في ترتيب الأحداث وربط بعضها ببعض؛ ففي سياق تفسيره قوله تعالى: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) [القصص: ١٤] يقول: " وإنما أوتي الحكم أعني النبوءة بعد خروجه من أرض مدين، كما سيجيء في قوله – سبحانه وتعالى : (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ)[القصص: ٢٩]"[١].

كما لم يغفل البِنى الصرفية وأشار إلى دورها في دلالة الكلمات الدالة على الزمن وهو ما لوحظ في سياق تفسيره قوله، تعالى: (عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ)[القصص: ٢٧]. فهنا الحوار جاء واصفًا المفردة (حِججٍ) واشتقاقها بوصفها دالة على الزمن، معللا ذلك بقوله: " والحِجَجُ جمعُ حِجَة بكسر الحاء وهي السنة مشتقة من اسم الحج؛ لأن الحج يقع كل سنة وموسم الحج يقع في آخر شهر من السنة العربية"[٢].

لذلك جاءت الضمائم اللغوية ذات الدلالة على الزمن وقد شكَّلت محورًا أساسًا في تحديد دلالات هذا الخطاب التفسيري بل كانت منظِمًا للحدث يعرض نقطة بدايته والنقطة الاحتمالية الزمنية التي ترتبط بنهايته؛ الأمر الذي حمل مرسل الخطاب على العناية بها مبرزًا مظاهر التحديد الدلالي لتلك الضمائم اللغوية والكشف عن وظيفتها في ترتيب الأحداث وعلاقة بعضها ببعض، كما حرص على الإشارة إلى البنى الصرفية للكلمات ذات الدلالة على الزمن واشتقاقاتها.

---

[١] . التحرير والتنوير– ٢٠ ٨٧

[٢] .التحرير والتنوير– ١٠٧/٢٠

المطلب الثاني: عنصر المكان في الخطاب التفسيري لسورة القصص وكفايته التواصلية:

يمثل المكان في سورة القصص قيمة تعبيرية ومقاصدية وحضورية كما يشّكل إطارًا له فاعلية خاصة، تحرك الأحداث وتوثقها، لما له من بعد وظيفي في مجرياتها ودلالتها، وما يستتبع ذلك من عظات وعبر؛ الأمر الذي استشعره مرسِل الخطاب وأولاه عنايته؛ فهذا العنصر السياقي التواصلي يحوي- بطبيعته الشمولية- عنصر الزمن ويتآلف معه، ويضم الأحداث والشخوص المحركة لها؛ مما حمل مرسل الخطاب على كشف النقاب عن هذه الأماكن الواردة في السورة الكريمة؛ قاصدًا من وراء ذلك تعميق مقاصد الخطاب القرآني في سورة القصص، وإيضاح الصورة وتقريبها إلى ذهن المتلقي ،وإتمام الفائدة المبتغاة من تفسيره؛ فضلا على رغبته في ضبطه وإحكامه وإلمامه بعناصر التواصل جميعها التي تعين على تحقق الهدف من العملية التخاطبية بين أطرافها.

والمتأمل لكلمة (الأرض) بوصفها ضميمة لغوية دالة على المكان- يلحظ تكرارها في (تسعة) مواضع من سورة القصص، وقد أولاها مرسل الخطاب عنايته موضحًا دلالاتها ومعللا لتمايزها وتباينها. وهي على ترتيب ورودها في السورة الكريمة:

- يقول المولى، تبارك وتعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)[القصص: ٤].
- (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)[القصص: ٥].

- (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) [القصص: ٦].
- (إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ))[القصص: ١٩].
- (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ))[القصص: ٣٩].
- (وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا))[القصص: ٥٧].
- (وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ))[القصص: ٧٧].
- (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ))[القصص: ٨١].
- (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) [القصص: ٨٣].

وتحقيقا لعناية ابن عاشور بعنصر المكان، بوصفه عنصرًا سياقيًّا غير لغوي لخطابه، وإدراكه دوره في إتمام عملية التواصل؛ لوحظ في الآية الأولى التي وردت في مستهل السورة الكريمة حاملة أسباب هلاك فرعون وجنوده" (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ) أنه قد عالج المفردة (الأرض) كاشفًا عن دور السياق في بيان المقصود بها وعلة مجيئها معرفة بـ(أل) مجوّزًا آراء أخرى وداعمها بأسباب جغرافية؛ فيقول:" والأرض: هي أرض مصر، فالتعريف فيها للعهد؛ لأن ذكر فرعون يجعلها معهودة عند السامع؛ لأن فرعون اسم ملك مصر. ويجوز أن تجعل المراد بالأرض جميع الأرض يعني المشهور بالمعروف منها؛ فإطلاق الأرض كإطلاق الاستغراق العرفي فقد كان مُلك فرعون(رعمسيس الثاني) ممتدًا من بلاد الهند من حدود نهر (الكنك) في الهند إلى نهر(الطونة) في أوروبا؛

فالمعني أرض مملكته"[1]، ثم يحيل إلى تلك المعالجة الإيضاحية في سياق تفسيره قوله تعالى:(وَالَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)[القصص: ٥] قائلا:" والأرض هي الأرض" في قوله تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)[القصص: ٤] "[2].

ويكرر الدلالة نفسها في سياق تفسيره قوله تعالى:(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) [القصص: ٢٥] مجوّزًا آراء أُخَر ومعلّلًا ذلك بقوله:" والأرض يجوز أن يراد بها المعهودة؛ أي أرض مصر، وأن يراد بها الجنس، أي في عالم الأرض؛ لأنهم كانوا يومئذٍ أعظم أمم الأرض."[3]، ثم يعرج إلى تحديد تلك المفردة تحديدًا دلاليًّا دقيقًا مشيرًا، في الوقت ذاته، إلى العلاقة الدلالية بين الأرض المُحل بها وبين الكرة الأرضية على وجه العموم، الأمر الذي يلحظه قارىء تفسيره لقوله تعالى: (وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ)[القصص: ٤]؛ فيقول:" والمراد بالأرض أرضهم التي هم حالون بها؛ وإذ قد كانت جزءًا من الكرة الأرضية فالإفساد فيها إفساد مظروف في عموم الأرض"[4]. كما استعان بتحديد نوع اللاصقة السابقة (أل) التعريفية في إيضاح دلالة المفردة (الأرض) الذي ظهر في سياق تفسيره قوله تعالى:(وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)[القصص: ٦]؛ قائلا:" والتمكين لهم في الأرض تثبيت سلطانهم فيما ملكوه منها وهي أرض الشام إن كانت اللام عوضًا عن المضاف إليه ويحتمل أن يكون المعنى تقويتهم

---

[1] . التحرير والتنوير– ٦٧/٢٠

[2] .التحرير والتنوير– ١٢٤/٢٠

[3] . التحرير والتنوير– ١٢٤/٢٠

[4] .التحرير والتنوير– ٢٠/ ١٤٠

بين أمم الأرض إن حُمل التعريف على جنس الأرض المنحصر في فرد، أو على العهد، أي: الأرض المعهودة للناس"[١].

غير أنه في سياق تفسيره قصة (قارون)، وتحديدًا في تفسيره المراد من (الخسف) يبرز وظيفة السياق في التخصيص الدلالي للأرض المخسوفة وهي تلك المصاحبة لقارون ولداره فحسب وليست الأرض كلها على وجه العموم؛ فيقول:" وهذا الخسف خارق للعادة؛ لأنه لم يتناول غير قارون ومن ظاهره...، وغير دار قارون؛ فهو معجزة لموسى، عليه السلام"[٢].

أما في الآيات الثلاث الأُخر: (إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ) [القصص: ١٩]،(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا) [القصص: ٥٧]،(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)[القصص: ٨٣]؛ فلم يحدد المراد من دلالة لفظة (الأرض) ولم يقف إزاءها شارحًا أو مفسّرًا أو محيلًا على تفسيرات سابقة؛ ربما يرجع ذلك إلى أن عنصر المكان فيها ليس عنصرًا أساسًا غير مسئول مسؤولية كاملة عن التحديد الدلالي للآيات؛ فلن يضير متلقي الخطاب إذا كان المراد بالأرض في هذه الآيات مكان حلول أشخاص الحدث الكلامي أم أن المقصود منها الكرة الأرضية على وجه العموم.

نخلص مما سبق من تحديدات دلالية للضميمة اللغوية الدالة على المكان (الأرض) أن ابن عاشور قد آثر إيضاح المراد منها في الآيات الخاصة

---

[١] .التحرير والتنوير – ٢٠/٧١

[٢] . التحرير والتنوير– ٢٠/ ١٨٥

بموسى ،عليه السلام، مع فرعون وقومه ربما لأن قصتهما استهلت بها السورة الكريمة ومثلتْ محورًا محركًا للأحداث؛ فآثر التركيز عليها شرحًا وتفسيرًا.

- **اليم**[1]:

لقد شكلت هذه الضميمة اللغوية(اليم) محورًا دلاليًّا أساسًا في سورة القصص؛ إذ كان (اليم) موطنًا لنجاة موسى وهو رضيع وكذا بعد تلقيه الرسالة، وفي الوقت ذاته شكّل (اليم) مكانًا لهلاك فرعون وقومه الطاغيين المفسدين في الأرض.

سعى مرسل الخطاب إلى تفسير هذه المفردة في سياقها الأول الذي وردت فيه من السورة الكريمة في قوله تعالى:(فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)[القصص: ٧] محدِدًا مكان(اليم) جغرافيًّا ومؤصلًا للكلمة من كلام العرب ومعضدًا آراءه بآيات من الذكر الحكيم؛ فيقول:" واليمُ: البحر وهو هنا نهر النيل الذي كان يشق مدينة فرعون حيث منازل بني إسرائيل. واليم في كلام العرب مرادف البحر، والبحر في كلامهم يطلق على الماء العظيم المستبحر؛ فالنهر العظيم يسمى بحرًا ، قال تعالى:(وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)[فاطر: ١٢] فإن اليمَّ من الأنهارِ"[2].

---

[1] . جاء في لسان العرب:"اليَمُّ البحرُ....، لا يُثَنَّى ولا يُكَسَّر ولا يُجْمَع جمعَ السلامة، وزَعَم بعضُهم أَنها لغة سُرْيانية فعرّبته العرب، وأَصله يَمًّا، ويَقَع اسمُ اليَمّ على ما كان ماؤه مِلْحًا زُعاقًا، وعلى النهر الكبيرِ العَذْب الماء ...." ينظر: لسان العرب- ابن منظور- دار صادر – بيروت- مادة (ي.م.م)

[2] .التحرير والتنوير – ٢٠/ ٧٤

أما في موضعها الآخر الذي ذُكرت فيه هذه المفردة (اليم) في سياق الهلاك؛ فلم يقف إزاءها مرسِل الخطاب شارحًا أو مفسرًا أو محيلًا إلى مواضع تفسيرية أُخر، وإنما تمركز مسعاه التفسيري حول عملية الهلاك نفسها وأسبابها المفضية إليها والعبرة منها، وكيف جاءت هذه القصة ترهيبًا وإنذارًا لمشركي قريش الذين كذبوا دعوة نبيهم محمد ،صلى الله عليه وسلم، واستكبروا عن دعوة الحق؛ لعلهم يعتبرون بأن الذين كذبوا الرسل واستكبروا عن دعوتهم، عاقبتهم الهلاك في الدنيا والآخرة، لا محالة.

- **المدينـــة:**

وتأتي الضميمة اللغوية (المدينة) متكررة ثلاث مرات دالة على المكان دلالة محورية محركة للأحداث، كما في الآيات الكريمة على الترتيب، يقول تعالى:

- (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا) [القصص: ١٥]
- (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)[القصص: ١٨]
- (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى)[القصص: ٢٠]

ليدل في الآية الأولى على المراد من تلك المدينة، وهي ممفيس قاعدة مصر الشمالية[١].ويحيل إليها ابن عاشور إحالة ضمنية في سياق تفسيره للآية الثانية؛ قائلا:"...، ليكون متحفزًا للاختفاء أو الخروج من المدينة؛ لأن خبر قتل القبطي لم يفشُ أمره ؛لأنه كان في وقت تخلو فيه أزقة المدينة، كما

---

١ . التحرير والتنوير- ٨٨/٢٠

تقدم[1]." غير أنه ذكر العلة من التحديد المكاني في قوله تعالى:(مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ) [القصص: ٢٠] ذلك المكان الذي جاء منه الرجل الذي يعرف موسى، عليه السلام، ويحبه؛ قائلا:" والظاهر أن أقصى المدينة هو ناحية قصور فرعون وقومه فإن عادة الملوك السكنى في أطراف المدن؛ توقيًّا من الثورات والغارات؛ لتكون مساكنهم أسعد بخروجهم عند الخوف وقد قيل: الأطراف منازل الأشراف"[2].

فالمدينة في الآيات الكريمة هي ممفيس قاعدة مصر الشمالية وقتذاك؛ أما أقصاها فالمراد به هنا مساكن آل قصر فرعون.

- **القريــة**:

أما المفردة (القرية) فقد تكررت مرتين في سياق الحديث عن القرى المهلكة، في قوله تعالى: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)[القصص: ٥٨] ، وقوله تعالى:(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا)[القصص: ٥٩] ويلاحظ فيهما أن ابن عاشور قد أغفل في تفسيره التحديد الدلالي للقرية في الآية الأولى؛ لأن سياق الآية يميل إلى العموم الدلالي وفقا لما تقتضيه الضميمة اللغوية(كم) الدالة على الكثرة؛ فلم تُقيد بدلالة بعينها؛ غير أنه آثر إيضاح دلالة الضميمة اللغوية(مساكنهم) الدالة على المكان؛ فيسوق لمتلقيه المراد من (السكنى)، بقوله: "الحلول في البيت ونحوه في الأوقات المعروفة

---

[1] .التحرير والتنوير- ٩١/٢٠

[2] . التحرير والتنوير- ٩٥/٢٠

بقصد الاستمرار زمنًا طويلًا"[١]. داعمًا خطابه بالتنبيه إلى الدلالة المجازية لعبارة (لم تسكن بعدهم)؛ فهي كناية عن انقراضهم عن بكرة أبيهم.وموضحًا أنه سكن قليل عارض لا نية فيه للإطالة أو للإقامة[٢].

ويستحضر ابن عاشور نصًّا من السنة النبوية يعضد به آراءه ويدعمها ويقويها، وهو أن النبي، صلى الله عليه وسلم، مرَّ في طريقه إلى تبوك بحجر ثمود؛ فقال،صلى الله عليه وسلم:" لا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ"[٣]، أي: خائفين. "اقتصارًا على ضرورة المرور؛ لئلا يتعرضوا إلى تحقق حقيقة السكنى التي قدر الله انتفاءها بعد قومها فربما قدر إهلاك من يسكنها تحقيقًا لقدره"[٤]. وفي سياق تفسيره تلك اللفظة التي وردت مجموعة في قوله،تعالى:(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا) [القصص: ٥٩] يسوق ابن عاشور لها تعريفًا؛ فيقول:"والقرى: هي المنازل لجماعات من الناس ذوات البيوت المبنية"[٥]. ويعلل

---

١ .التحرير والتنوير- ٢٠/١٥١

٢ .ينظر: التحرير والتنوير- ٢٠/١٥١

٣ . الحديث في: شرح النووي على مسلم- كتاب الزهد والرقائق- دار الخير للطباعة- ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م- ج١٨- ص٤٠٦- رقم الحديث(٢٩٨٠) ، ونصه:" حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة بن سعيد وعلي بن حجر جميعا عن إسمعيل قال ابن أيوب حدثنا إسمعيل بن جعفر أخبرني عبد الله بن دينار أنه سمع عبد الله بن عمر يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحاب الحجر لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم"

٤ . التحرير والتنوير- ٢٠/ ١٥١

٥ . التحرير والتنوير- ٢٠/ ١٥٢

لتخصيص السياق القرآني هذه اللفظة دون غيرها؛ بقوله:"لأن العبرة بها أظهر؛ لأنها إذا أهلكت بقيت آثارها وأطلالها ولم ينقطع خبرها من الأجيال الآتية بعدها"[1]. وسياق هذه اللفظة المكانية جاء "راصدًا نماذج من قرى بلاد العرب، مثل: مكة وجدة ومنى والطائف ويثرب وقرى اليمن وقرى البحرين، وغير ذلك.ثم يعرج إلى المركب الإضافي (أم القرى) ويعرفه بقوله:" أم القرى هي القرية العظيمة منها وكانت مكة أعظم بلاد الغرب شهرة وأذكرها بينهم وأكثرها مارّة وزوارًا لمكان الكعبة فيها والحج إليها"[2].

- **مدين:**

وتأتي الضميمة اللغوية (مدين) ذات دلالة على مكان مخصوص، وقد تكررت في السورة الكريمة في ثلاثة مواضع منها، وهي على الترتيب، يقول تعالى:

- (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ)[القصص: ٢٢]
- (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ)[القصص: ٢٣]
- (وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ)[القصص: ٤٥]

فقد أولاها ابن عاشور عنايته بوصفها تمثل جانبًا مهما في حياة موسى،عليه السلام، ومرحلة من أهم مراحل حياته؛ لذا فقد آثر تحديد موقع (مدين) الجغرافي وما مرَّ به موسى، عليه السلام، في طريقه تلقائها محدِدًا المسافة التي سلكها موسى، عليه السلام، بالميل وبالزمن سيرًا على الأقدام؛ يقول:" أرض مدين واقعة على الشاطىء الغربي من البحر الأحمر وكان موسى

---

[1] . التحرير والتنوير- ١٥٢/٢٠

[2] . التحرير والتنوير- ١٥٢/٢٠

قد سلك إليها عند خروجه من بلد(رعمسيس) أو(ممفيس) طريقًا غربية جنوبية فسلك برية تمر به على أرض العمالقة وأرض الأدوميين ثم بلاد النبط إلى أرض مدين. تلك مسافة ثمانمائة وخمسين ميلا تقريبا. وإذ قد كان موسى في سيره ذلك راجلا ؛فتلك المسافة تستدعي من المدة نحوًا من خمسة وأربعين يومًا. وكان يبيت في البرية لا محالة. وكان رجلا جلدًا وقد ألهمه الله سواء السبيل؛ فلم يضل في سيره"[١].

وقد جاء المركب الإضافي (ماء مدين)؛ ليكون مرتكزًا خطابيًا في تفسيره هذه الآية؛ فقد ألقى الضوء على الكلمة المضافة(ماء) موضحًا المراد بها وأبعادها الاجتماعية؛ إذ يقول: "والمراد بالماء موضع الماء، وماء القوم هو الذي تعرف به ديارهم؛ لأن القبائل كانت تقطن عند المياه وكانوا يكنون عن أرض القبيلة بماء بني فلان؛ فالمعنى: ولما ورد أي عندما بلغ بلاد مدين"[٢].

كما تمركزت الدلالة المكانية في الآية الثالثة في كلمة(ثاويًا) بمعنى مقيمًا، ثم مال بسياق تفسيره نحو نفي علم النبي،ﷺ، بما حدث في مدين وأهلها لولا أن أخبره العليم الخبير بما لم يكن يعلمه، عليه الصلاة والسلام، ولا قومه من قبل.

- **شاطىء الواد الأيمن**:

كما أن المركب الإضافي الوصفي (شاطىء الواد الأيمن) قد جاء حاملًا الدلالة على مكان مخصوص، في قوله تعالى:(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ

---

١ . التحرير والتنوير- ٢٠/٩٨

٢ . التحرير والتنوير- ٢٠/ ٩٨

الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ) [القصص: ٣٠]؛ إذ يشير إلى سبب وصف الشاطىء بالأيمن موضحًا طريقة العرب في ذلك معضدًا قوله بأبيات لامرىء القيس، ومعتمدًا ،في الوقت ذاته، على ما اصطلح عليه المسلمون في تحديد المواقع الجغرافية؛ فيقول:" ووصف الشاطىء بالأيمن إن حمل الأيمن على أنه ضد الأيسر فهو أيمن باعتبار أنه واقع على يمين المستقبل القبلة على طريقة العرب من جعل القبلة هي الجهة الأصلية لضبط المواقع وهم ينعتون الجهات باليمين واليسار يريدون هذا المعنى، قال امرؤ القيس:

على قَطَنٍ بالشّيمِ أيمن صوبَه وأيْسَرِه على السِّتار فيذبُلِ[1]

وعلى ذلك جرى اصطلاح المسلمين في تحديد المواقع الجغرافية ومواقع الأرضين؛ فيكون الأيمن يعني الغربي للجبل، أي جهة مغرب الشمس من الطور"[2]. ثم يحيل بعد ذلك إلى هذا الوصف المفصل[3].

نخلص مما سبق عرضه أن مرسل الخطاب التفسيري(ابن عاشور) عُني بعنصر المكان بوصفه محدِدًا دلاليًّا، وقد تبلورت مظاهر عنايته به في مجموعة من النقاط من أبرزها:

---

[1] . البيت من الطويل، وهو لامرىء القيس في ديوانه – تح: عبد الرحمن المصطاوي– ط٢– دار المعرفة – بيروت ٢٠٠٤م– ص٤٣؛ ولسان العرب ٤/ ٣٤٥ (ستر).

[2] .التحرير والتنوير– ١١٢/٢٠

[3] . ينظر: التحرير والتنوير– ١٣٠/٢٠

- إبراز وظيفة السياق في التحديد الدلالي للضمائم اللغوية ذات الدلالة على المكان كما في تحديده المراد بالأرض في قوله تعالى:(فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ)[القصص: ٨١]
- الكشف عن دور العلاقات الدلالية بين الضمائم اللغوية ذات الدلالة على المكان، ولا سيما ما قد يوقع المتلقي منها في لبس أو تشتت.
- لم يغفل دور اللواصق التصريفية [١]في إيضاح الدلالة المرادة وتحديدها.
- عني بالتحديد الجغرافي للكلمات ذات الدلالة على المكان؛ مما يعكس حرصه على إيضاح دلالاته وإيصالها تامة لمتلقيه.
- حرصه على التأصيل الاشتقاقي للكلمات ذات الدلالة على المكان وتأصيلها من كلام العرب كما مر في كلمة (اليم).
- ذكر العلة وراء التحديدات المكانية في السورة الكريمة، كما رأينا في تفسيره قوله تعالى:(مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ).
- التعريف ببعض الضمائم اللغوية الدالة على المكان كما في تعريفه لفظة (القرية) ورصده نماذج من قرى العرب.

---

[١] .تُعرف اللاصقة بأنها: إضافة عناصر صرفية إلى الأصل توضع تارة في رأس الكلمة وتارة في ذيلها دون تفريق ؛ لتضيف وظيفة نحوية أو قواعدية، وتنقسم إلى: لواصق تصريفية، مثل: (أل وحروف المضارعة وقد والسين وسوف) ولواصق اشتقاقية، مثل:(الواو والنون، الألف والنون، الألف والتاء، والتاء المربوطة ،الضمائر المتصلة، الألف المقصورة، والألف الممدودة،و نونا التوكيد، وياء النسب)ينظر:اللغة، جوزيف فندريس، تعريب عبد الحميد الدواخلى، محمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة ١٩٩٥م، ص١١٦.

- تحديد مقدار المسافات التي تفصل بين المدن بالميل وبالزمن – أيضًا – كما في تحديده المسافة بين مصر ومدين سيرًا على الأقدام.
- الإشارة إلى ما اصطلح عليه المسلمون من جعل القبلة هي الجهة الأصلية لضبط المواقع الجغرافية كما في (شاطىء الواد الأيمن).

المطلب الثالث: الأبعاد السياسية في الخطاب التفسيري لسورة القصص وكفايتها التواصلية:

أشار ابن عاشور إلى الأبعاد السياسية في سورة القصص كاشفًا عن طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكومين؛ فقد شكلت إشاراته تلك عنصرًا مهمًا من عناصر السياق غير اللغوي، وتحديدًا السياق الثقافي الذي من شأنه الإسهام إلى حد كبير في تحديد المعنى وإيضاحه؛ الأمر الذي يعين مرسل الخطاب على إيصال الصورة كاملة إلى أذهان متلقيه، تلك الصورة القصصية التي امتازت بها السورة الكريمة؛ إذ بدأت بذكر عوامل انهيار ملك فرعون وأسباب سوء عاقبته في الدنيا والآخرة التي كان من أبرزها على الإطلاق (الفساد في الأرض) الذي تحددت مظاهره في: العلو في الأرض– الظلم–الطغيان – تفريق الشمل– استحياء النساء– القتل غير المبرر– إرهاب الناس وإشاعة الخوف فيهم– البطانة الفاسدة(هامان وجنوده)، التي أعانته على الظلم والطغيان.

فقد أومأ مرسل الخطاب إلى ما في سياسة فرعون من فساد مبرزًا ،في الوقت ذاته، ما فيها من عظات وعبر لكل جبابرة الأرض؛ فقد قامت سياسة فرعون الفاسدة المفسدة في الأرض على الظلم والطغيان والعلو في الأرض وتفريق الناس إلى جماعات قوية وأخرى ضعيفة يضرب بعضهم بعضا؛ ليبقى ملكه قائمًا وقويًّا؛ ويعلل مرسل الخطاب لهذه السياسة الفاسدة، ومقصد هذا

الطاغية من ورائها؛ بقوله: "وقد أغرى بينهم العداوة ليأمن تألبهم عليه كما يقال:(فرّق تحكم) وهي سياسة لا تليق إلا بالمكر بالضد والعدو ولا تليق بسياسة ولي أمر الأمة الواحدة"[١]. كما أن من مظاهر فساد ذلك الحاكم الفاسد ومن أسباب هلاك دولته استضعاف طائفة من أهل مملكته؛ فيجعلها مهمشة محقرة الجانب منزوعة الحقوق "لا مساواة بينها وبين فرق أخرى ولا عدل في معاملتها بما يعامل به الفرق الأخرى، في حين أن لها من الحق في الأرض ما لغيرها؛ لأن الأرض لأهلها وسكانها الذين استوطنوها ونشأوا فيها"[٢].

ولم يكن استضعافه لفئة بعينها لانحطاط في أعمالهم أو في أخلاقهم أو أنهم ليسوا أهلا للاعتداد بهم أو الاعتماد عليهم" بل جرى استضعافه على اعتبار العنصرية والقبلية وذلك فساد؛ لأنه يقرن الفاضل بالمفضول." ولعل من أبرز تمظهرات فساده التي كانت سببًا في هلاكه وهلاك قومه وجنوده ومملكته كلها، قتل الأطفال الذكور من بني إسرائيل؛ قاصِدًا من ذلك "أن لا تكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة"[٣]. وكذا استحياؤه النساء واستعبادهن؛ فقد كان يبقيهن أحياء ليس لهن أزواج؛ حتى" يصرن بغايا...، وإذ كان احتقارهن بصد قومه عن التزوج بهن؛ فلم يبق لهن حظ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة تذبيح الأبناء؛ إذ كل ذلك اعتداء على الحق"[٤].

---

١ .التحرير والتنوير- ٢٠/ ٦٧

٢ .التحرير والتنوير- ٢٠/ ٦٩

٣ . التحرير والتنوير- ٢٠/٦٩

٤ . التحرير والتنوير- ٢٠/٧٠

المطلب الرابع: الأبعاد الاجتماعية في الخطاب التفسيري لسورة القصص وكفايتها التواصلية:

ليست اللغة منبتة الصلة عن المجتمع الذي نشأت فيه وتطورت؛ فهي ظاهرة اجتماعية، وبها يعبر المتخاطبون عن أغراضهم ومقاصدهم؛ وقد دفعت اجتماعيةُ اللغة بعضَ المحدثين إلى العناية بعلمي اللغة والاجتماع معا؛ فظهر (علم اللغة الاجتماعي). وفي هذا المقام يقول (آلان جاردنر) موضحًا العلاقة بين العلمين، اللغة والاجتماع: " إن العلم الذي له دين على النظرية اللغوية في النهاية ليس المنطق ولا علم النفس، وإنما هو الاجتماع"[١]. واللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية يتمحور دورها في الكشف عن طبيعة المجتمع ؛ فهي "أداة للتعبير عما يدور في المجتمع؛ فهي تسجل لنا في دقة ووضوح الصور المختلفة المتعددة الوجوه لهذا المجتمع، من حضارة ونظم وعقائد واتجاهات فكرية وثقافية وعلمية وفنية واقتصادية ، وغير ذلك"[٢]. والخطاب- مكتوبا كان أو منطوقا- يعدُّ ممارسة اجتماعية وتفاعلًا موقفيًّا يعكس ثقافة المجتمع وأعرافه وعاداته وتقاليده وينقل لنا صورة حية عن أفكاره ومعتقداته؛ فلم يغفل مرسل الخطاب التفسيري دور السياق غير اللغوي وما انبثق عنه من أبعاد اجتماعية تعين متلقيه على إدراك مقصده من أوجز طرقه وأقربها، وقد تبلورت ملامح هذا البعد الاجتماعي لديه في أنماط متعددة، ومنها:

---

[١] . اللغة والمجتمع- م.لويس- تر: إبراهيم أنيس وتمام حسان- دار إحياء الكتب العربية – مصر ١٩٥٩م- ص٢٩٤

[٢] . علم اللغة- حاتم الضامن- مطبعة التعليم العالي- بغداد ١٩٨٩م- ص٣٧

- **التعريف بشخصيات الحدث الكلامي**:

إن المتأمل لعرض ابن عاشور شخصيات الحدث الكلامي يلحظ عنايته الكبرى بإبراز سمات تلك الشخصيات وتاريخها وزمانها، والتمييز بين ما يبدو منها متشابهًا وملبسًا ،في الوقت نفسه، على المتلقي؛ فيقول، مثلا، عارضًا لشخصية فرعون بعدما أوضح أنه لقب لُقّب به ملوك مصر، ومفرقا بين فرعون الذي وُلِد موسى، عليه السلام، في عهده وبين فرعون الذي أهلكه الله غرقًا في اليم هو وجنوده: " وفرعون هذا هو (رعمسيس) الثاني، وهو الملك الثالث من ملوك العائلة التاسعة عشرة في اصطلاح المؤرخين للفراعنة، وكان فاتحًا كبيرًا شديد السطوة وهو الذي وُلد موسى، عليه السلام، في زمانه على التحقيق"[١].

وعقَّب على ذلك مفرقًا بين فرعون هذا وفرعون آخر، في سياق تفسيره قوله تعالى:(وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) [القصص: ٦]؛ فيقول:" وفرعون الذي أُري ذلك هو ملك مصر(منفتاح) الثالث وهو الذي حكم مصر بعد (رعمسيس) الثاني الذي كانت ولادة موسى في زمانه وهو الذي كان يحذر ظهور رجل من إسرائيل يكون له شأن"[٢]. كما عُني في سياق عرضه للشخصيات بالتمييز بين اللقب واسم العَلم بعد إقراره أن لفظة (هامان) قد أجمع المفسرون على أن المراد بها (وزير فرعون)؛ فيقول: "وأحسب أن هامان ليس باسم علم ولكنه لقب وزير الملك في مصر في ذلك العصر"[٣].

---

١ . التحرير والتنوير– ٢٠/٦٧

٢ . التحرير والتنوير– ٢٠/٧٢

٣ . التحرير والتنوير– ٢٠/٧٢

كما أدرك ابن عاشور أن اللغة سلسلة من النشاطات المرنة التي تستجيب لما يحدث في المجتمع وتعكس ما فيه من تناقضات وتباينات على مستوى شخصياته من ناحية وعاداته وتقاليده من ناحية أخرى؛ فآثر إبراز ذلك؛ إذ نراه عارضًا لجانب آخر من شخصيات الحدث الكلامي تتسم بالشهامة والمروءة؛ فقد سقى موسى للمرأتين، ولم ينتظر منهما أجرًا، ثم تولى إلى الظل داعيًا ربه، عز وجل، راجيًا أن يغنيه من فضله:(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) وعارضًا ما اتصف به شعيب، عليه السلام، من كرم للضيف وقرى؛ فقد" كان فعل موسى معروفا محضًا لا يطلب عليه جزاء؛ لأنه لا يعرف المرأتين ولا بيتهما، وكان فعل شعيب كرمًا محضًا ومحبة لقرى كل غريب، وتضييف الغريب من سنة إبراهيم؛ فلا غرو أن يعمل بها رجلان من ذرية إبراهيم عليه السلام"[1]. فقد أرسل شعيب، عليه السلام، ابنته إلى موسى، عليه السلام، ليجزيه أجر ما سقى لهما، وهنالك حدث ما كان بينهما من اتفاق، وأجاب الله دعاء موسى، عليه السلام، وأنزل عليه الخير "وأحسن خير للغريب وجود مأوى له يطعم فيه ويبيت، وزوجة يأنس إليها ويسكن"[2].

- **إشارة ابن عاشور إلى تباين العادات الاجتماعية بين الأمم والشعوب**:

قد تتباين العادات الاجتماعية وتتمايز من مجتمع إلى آخر ولاسيما فيما يخص منها(عمل المرأة)؛ فقد أومأ إلى ذلك مرسل الخطاب في سياق

---

[1] .التحرير والتنوير ١٠٤/٢٠

[2] .التحرير والتنوير- ١٠٣/٢٠

تفسيره قوله تعالى: (وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَـذُودَانِ)[القصص: ٢٣]؛ فيقول معلقًا على الآية الكريمة: "في إذنه لابنتيه بالسقي دليل على جواز معالجة المرأة أمور مالها وظهورها في مجامع الناس إذ كانت تستر ما يجب ستره؛ فإن شرع من قبلنا شرعٌ لنا إذا حكاه شرعنا ولم يأت من شرعنا ما ينسخه ؛وأما تحاشي الناس من نحو ذلك؛ فهو من المروءة. والناس مختلفون فيما تقتضيه المروءة والعادات متباينة فيه وأحوال الأمم فيه مختلفة"[١].

كما رصد اختلاف عوائد الأمم في تزويج ولاياهم كما في حكم الإجارة بوصفها عُرفًا وتعاقدًا بين طرفين يلتزم فيه بجعل الزواج مشروطًا بعقد الإجارة وقد ينتفع ولي المرأة بالأصالة، وقد أشار إلى ذلك في سياق تفسيره قوله تعالى:(قَالَـتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَـوِيُّ الْأَمِينُ)[القصص: ٢٦] قائلا:"وإذا أخذنا بظاهر الآية كانت دالة على أنهما جعلا المهر منافع إجارة الزوج لشعيب ؛فيحتمل أن يكون ذلك برضاها؛ لأنها سمعت وسكتت بناءً على عوائد مرعية عندهم بأن ينتفع بتلك المنافع أبوها"[٢].

وعلى الجانب الآخر يعرض مرسل الخطاب لبعض العادات والأعراف المجتمعية المشتركة بين الشعوب والقبائل؛ فيشير إلى ذلك في سياق تفسيره قوله تعالى: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مدينَ)[القصص: ٢٣]؛قائلا:" وماء القوم هو الذي تعرف به ديارهم؛ لأن القبائل كانت تقطن عند المياه وكانوا يكنون عن أرض القبيلة بماء بني فلان...، ويناسب القريب إذا جاء ديار قوم أن يقصد الماء؛

---

[١] .التحرير والتنوير-٢٠/

[٢] . التحرير والتنوير- ١٠٧/٢٠

لأنه مجتمع الناس فهناك يتعرف لمن يصاحبه ويضيفه"[1]. كما أن من العادات المجتمعية المشتركة بين القبائل، عادة الإرضاع وكفالة أهل بيت المرأة المرضعة بحفظ الطفل ورعايته؛ فيشير إلى ذلك بقوله:"إن عادتهم في الإرضاع أن يسلم الطفل الرضيع إلى المرأة التي ترضعه يكون عندها كما كانت عادة العرب؛ لأن النساء الحرائر لم يكُنَّ يرضَيْن بترك بيوتهن والانتقال إلى بيوت آل الأطفال الرضعاء كما جاء في خبر إرضاع محمد ﷺ، عند حليمة بنت وهب في حي بني سعد بن بكر"[2].

وفي السياق ذاته يشير إلى بعض سلوكيات المجتمع آنذاك، من نحو: الظلم الاجتماعي، والتفرقة الطبقية، وتصدي موسى، عليه السلام، لمثل ذلك كله، في سياق تفسيره قوله تعالى:(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ) [القصص: ١٥].

فلم يكن وكْز موسى القبطي استنصارًا للإسرائيلي الذي من شيعته؛ ولكنه كان انتصارًا للحق؛ فقد وقع الظلم على الإسرائيلي من هذا القبطي المتسلط؛ وهو ما أكده ابن عاشور بقوله:" وأما وكزه القبطي فلم يكن إلا انتصارًا للحق على جميع التقادير، ولذلك لما تكررت الخصومة بين ذلك الإسرائيلي وبين قبطي آخر وأراد موسى أن يبطش بالقبطي لم يقل له القبطي إن تريد إلا أن

---

[1] . التحرير والتنوير- ٢٠/٩٨

[2] .التحرير والتنوير- ٢٠/٨٤

تنصر قومك وإنما قال: (إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ)[القصص: ١٩] "،...وكان هذا قتل خطأ صادف الوكزُ مَقاتلَ القبطي ولم يُرد موسى قتله...، وإنما قال موسى ذلك (قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ) [القصص: ١٥] ذلك لأن قتل النفس مستقبح في الشرائع البشرية فإن حفظ النفس المعصومة من أصول الأديان كلها(لذا أقرَّ موسى، عليه السلام، بأن قتله القبطي إنما هو) فعل ناشىء عن وسوسة الشيطان ولولاها لكان عمله جاريا على الأحوال المأذونة"[١].

نخلص مما سبق عرضه أن ابن عاشور آثر إبراز التناقضات بين طبقات المجتمع التي تعكسها سلوكيات شخوص الحدث الكلامي ومعتقداتهم؛ فظهرت شخصية موسى،عليه السلام، شخصية رافضة للقتل وتراه فعلا مستقبحًا حتى من قبل أن يُبعثَ رسولا، وتظهر على الجانب الآخر شخصية فرعون الذي استحلّ ذبح أبناء بني إسرائيل؛ ليحافظ على ملكه وتبقى السلطة له ولقومه. فقد أدرك مرسل الخطاب أن خطابه التفسيري شأنه شأن أي خطاب آخر يعد موقفًا اجتماعيًّا تواصليًّا إبلاغيًّا يعكس ثقافة المجتمع الفكرية وعاداته وتقاليده، وصدى لمعتقدات أفراده وسلوكهم والتناقضات بين شخصياتهم وطبقاتهم الاجتماعية التي تتفاوت اللغة في التعبير عنها.

[١] .التحرير والتنوير –٢٠/٩٠

المطلب الخامس: الأبعاد النفسية في الخطاب التفسيري لسورة القصص وكفايتها التواصلية:

يعدُّ البعد النفسي للخطاب التفسيري عنصرًا من عناصر السياق غير اللغوي؛ إذ يعنى فيه ابن عاشور بالكشف عن الجوانب النفسية للشخصيات ،في سورة القصص، تلك الجوانب التي يستقيها من مكنونات النفس البشرية ودواخلها؛ الأمر الذي يسهم بقدر كبير في إدراك المتلقي لمقاصد الخطاب، وما يعلوها من عظات وعبر وأحكام شرعية ينبغي التنبيه عليها،وهو ما أدركه مرسل الخطاب؛ فأبرز دوره واضحًا من خلال عرضه لبعض الجوانب النفسية للشخصيات في سورة القصص، من مثل:

- التكبر والتجبر وما يترتب عليهما من مفاسد نفسية كبرى؛ فقد تسبب الطاغية فرعون، بعلوه في الأرض وجبروته، في أضرار نفسية لرعاياه ؛ صرّح بها مرسل الخطاب في قوله:" التكبر والتجبر مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمّة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم وبث عداواته فيهم، وسوء ظنه بهم، وأن لا يرقب فيهم موجبات فضل سوى ما يُرضي شهوته وغضبه، فإذا انضم إلى ذلك أنه ولي أمرهم وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضية سوء رعايته لهم والاجتراء على دحض حقوقهم، وأن يرمقهم بعين الاحتقار؛ فلا يعبأ بجلب الصالح لهم ودفع الضر عنهم، وأن يبتز منافعهم لنفسه ويسخّر من استطاع منهم لخدمة أغراضه وأن لا يلين لهم في سياسة؛ فيعاملهم بالغلظة وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته"[1].

---

[1] . التحرير والتنوير- ٢٠/٦٨

- **فراغ قلب أم موسى وآراء المفسرين النفسية في أسبابه**:

ويستمر ابن عاشور في إبراز الأبعاد النفسية موضحًا الأسباب التي صيّرت قلب أم موسى فارغًا وقد اختلف المفسرون فيها ؛ غير أن مردّ أسبابهم جميعها إلى نواحٍ نفسية فصّلها في قوله:" فاختلف المفسرون في ذلك قديمًا، ومرجع أقوالهم إلى ناحيتين: ناحية تؤذن بثبات أم موسى ورباطة جأشها، وناحية تؤذن بتطرق الضعف والشك إلى نفسها...، أما ما يرجع إلى الناحية الأولى؛ فهو أنه فارغ من الخوف والحزن فأصبحت واثقة بحسن عاقبته تبعًا لما ألهمها من أن لا تخاف ولا تحزن؛ فيرجع إلى الثناء عليها." معللا لذلك وموضحًا في السياق ذاته الرأي الذي يميل إليه، بقوله: "وهذا أسعد بقوله تعالى، بعد:(لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [القصص: ١٠]؛لأن ذلك الربط من توابع ما ألهمها الله من أن لا تخاف ولا تحزن...، وهذا أحسن ما فسرت به وهو من معنى الثناء عليها بثباتها...، أما الأقوال الراجعة إلى الناحية الثانية ...، الفراغ هو ذهاب العقل.."ويعقب على ذلك مصرَّحًا بالبعد النفسي أن الله أمَّنها من الخوف ، وهو: " توقع أمر مكروه، والحزن: حالة نفسية تنشأ من حادث مكروه للنفس كفوات أمر محبوب، أو فقد حبيب، أو بُعْده، أو نحو ذلك"[١].

وعلى الجانب الآخر وفي السياق ذاته ، لم يغفل ابن عاشور الإشارة إلى شعور الطمأنينة الذي بثه شعيب، عليه السلام، في نفس موسى، عليه السلام، وذلك في سياق تفسيره قوله تعالى: (قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

---

[١] . التحرير والتنوير- ٢٠/٨٠-٨١

[القصص: ٢٥]؛ فيقول:" فطمأنه شعيب بأن يزيل عن نفسه الخوف؛ لأنه أصبح في مأمن من أن يناله حكم فرعون...، ومعنى نهيه عن الخوف نهيه عن ظن أن تناله يد فرعون"[١].

وعليه، فإن مرسل الخطاب قد غرف من معين القرآن الكريم الذي لا ينضب؛ فهو أصدق خطاب يرسم الملامح الداخلية للنفس البشرية ومكنوناتها ويعلم ما تسر وتعلن ،وأثر ذلك في المحيطين بها؛ فهذه النفوس المذكورة في القرآن الكريم لها أشباه ونظائر لم تُذكر فيه يتوجب عليهم أن يتعظوا ويعتبروا بمن سبقهم وحق عليهم القول.

---

[١] . التحرير والتنوير- ٢٠/ ١٠٤

المبحث الثالث

الوظائف الإبلاغية التواصلية

في الخطاب التفسيري وكفايتها التواصلية

إن السلوك اللفظي للمتكلم – مكتوبًا كان أو منطوقًا– لابد له من وظيفة أو مجموعة من الوظائف الإبلاغية التواصلية تحمل المتكلم إلى إبلاغ السامع بأمر ما ؛حرصًا من الأول على إنجاح عمليتي التواصل والإبلاغ وإنجاعهما ؛ وإلا صار خطابه ضربًا من اللامعنى وفاقدًا كينونته التواصلية.

فالخطاب اللغوي يحمل وظائف متعددة غير أنها "تعود جميعها إلى الوظيفة المركزية للغة التي منها تتفرع وبها تتحدد وبالتالي فهي أبعاد مختلفة ومتكاملة لوظيفة واحدة، هي وظيفة التبليغ"[١]. فإبلاغ الكلام وإتمام فائدته ،وإنجاح عملية التواصل بين طرفيها ،مسعى يصبو إليه مرسل الخطاب، "ويؤيد ذلك اشتراط النحاة حصول الفائدة ليستحق الملفوظ تعريفه بأنه كلام"[٢].

وقد حدد (ابن جني) وظيفة اللغة في التعبير عن المقاصد والأغراض عندما حدها بأنها أصواتٌ يعبرُ بها كلُّ قومٍ عن أغراضِهم. وهو ما نجد إشارته عند (ابن خلدون) في تعريفه للغة؛ بقوله: "اعلم أن اللغة في المتعارف عليه هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني ناشىء عن القصد بإفادة

---

[١] .اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري– أحمد المتوكل– منشورات دار عكاظ– ١٩٨٩م– ص٤٩–٥٠

[٢] . إستراتيجيات الخطاب– الشهري– ص٦

الكـلام"[١]. وممـن اشْـتُهِرَ بتنـاول وظـائف اللغـة مـن المعاصـرين (رومـان جاكبسون)" إذ كـان منطلقـه فـي تحديـدها هـو الارتكـاز علـى العناصـر المكونـة لعمليـة الاتصـال بدءًا من المرسل مرورًا بترميز الرسالة، وإرسالها إلـى الطرف الآخر عبر قناة"[٢].

و الرسالة الواحدة قد تؤدي عدة وظائف تواصلية متنوعة ترتبط فيما بينها برباطٍ وثيـق ؛إذ إن " عمـل اللسـاني يطلعنـا بمواقـع مختلـف هـذه الوظـائف ويحصرها ويعلمها علـى هرم الرسـالة الخطابيـة المنجزة، وفيها يحدد التصنيف المميز لأشكال الرسائل وخصوصياتها بالاعتماد علـى الوظيفـة المهيمنـة التـي تنسب إليها، وتتلون بمميزاتها"[٣]. وينبثق عن تلك الوظيفة التواصلية الإبلاغيـة الأساسية وظائف أُخر خطابية متعددة؛ إذ "ليست اللغة صيغًا وتراكيب مقصورة لـذاتها وإنمـا وجـدت للتعبيـر عـن وظـائف وأفعـال"[٤]. ظهرت جليـة فـي الخطـاب التفسيري لسورة القصص وأسهمت في كفايته التواصلية، ومن أبرزها:

- **المطلب الأول**: **الوظيفة الإقناعية وكفايتها التواصلية**:

تعد الوظيفـة الإقناعيـة مـن الوظـائف الخطابيـة، التـي يرتكـز مسـعاها حول التـأثير فـي المرسل إليـه أو متلقي الخطاب؛ فالخطاب اللغوي- مكتوبا أو

---

١ . المقدمة – ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد ت١٤٠٦م) – تحقيق، درويش الجويدي- المكتبة العصرية –صيدا، لبنان، د.ت ص: ٥٤٥

٢ .إستراتيجيات الخطاب- الشهري- ص١٢

٣ . التواصل اللساني والشعرية- مقاربة تحليلية- ص١٥

٤ .اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها- نايف خرما وعلي حجاج- سلسلة عالم المعرفة- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-

منطوقا- يرمي في المقام الأول إلى التأثير في المتلقي، إفهامًا وإقناعًا؛ في محاولة لتحقيق عملية التواصل الاجتماعي بين مستعملي اللغة، واستمرارها والإبقاء عليها.

فكل خطاب لغوي يحمل في طياته شحنة حجاجية يسعى إلى تحقيق وظائفه التواصلية المنشودة من خلالها؛ "شريطة ألا تكتسي تلك الشحنة صبغة الإكراه، ولا تدرج على منهج القمع وإنما تتبع في تحصيل غرضها سبلًا استدلالية تجُرُّ الغير جرًّا إلى الإقناع"[١].فاللغة بطبيعة الحال" ذات وظيفة تأثيرية في السلوك الإنساني تنبني عليه تغيرات في المواقف والآراء"[٢].وعليه فإن الأمر كله مردُّه إلى قدرة مرسل الخطاب على توظيف الآليات اللغوية وغير اللغوية التي من شأنها إقناع المتلقي؛ فمرسل الخطاب هو:" الذات المحورية في إنتاج الخطاب؛ لأنه هو الذي يتلفظ به من أجل التعبير عن مقاصد معينة وبغرض تحقيق هدف فيه"[٣].فدور المتكلم رئيس يتمثل في سعيه الدءوب إلى التأثير في السامع وتحقيق الإقناع ؛فعليه المعوّل في مجموعة مرتكزات البنية التواصلية المتمثلة في (المرسِل والمستقبِل والسياق التواصلي)؛ فقد استجمع ابن عاشور قواه اللغوية جميعها ووظفها توظيفًا ملائمًا لأحوال المتلقين وقدراتهم الاستيعابية المتنوعة بوصفهم من أهم عناصر السياق التواصلي؛ في محاولة منه لإقناع

---

١ .في أصول الحوار وتجديد علم الكلام- طه عبد الرحمن- ص٣٠

٢ .في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم- خليفة بوجادي- ط١- بيت الحكمة للنشر والتوزيع- العلمة- الجزائر٢٠٠٩م- ص٦٢

٣ .إستراتيجيات الخطاب- الشهري- دار الكتاب الجديد ٢٠٠٤م- ص٤٥

متلقيه وتحقيق الهدف الخطابي وإتمام عملية التواصل اللغوي وإنجاحها واستمرارها؛ ومن ثم تحقق الكفاية الاتصالية لخطابه.

والمتأمل في الخطاب التفسيري لسورة القصص يلحظ عناية صاحبه بالجوانب اللغوية، وإلمامه بها وإدراكه دورها الرائد في التأثير في المتلقي؛ ترغيبًا أو ترهيبًا، وعدًا أو وعيدًا. واتخاذها وسيلة لدعم تفسيره؛ إذ لم يغفل دور المعجم في إضاءة المعنى وإيضاحه وإزالة اللبس أو الغموض الذي قد يكتنف بعض المفردات، مسلطًا الضوء، في الوقت ذاته، على الدلالة السياقية أو الدلالة المرادة من الكلمة في موضعها المحدد ،كما اتخذ الاستدعاءات النصية مرتكزًا خطابيًّا مع كل آلية لغوية وظفها في تفسيره- كما سيرد تفصيله في النماذج التطبيقية- فنرى مرسل الخطاب يقدم معطى معجميًّا ويحرص على إقناع متلقيه به؛ فساق مجموعة من الحجج الإقناعية المتدرجة في سلمه الإقناعي؛ إذ إن هذا السلم:" ينطوي على علاقة ترتيبية للحجج"[1].

وهذا التدرج التراتبي الإقناعي يسهم في الانتقال بالمتلقي من حالة اللبس والغموض إلى حالة الوعي التام بالمعنى المراد. فلو تأملنا المعطى المعجمي(بصُر بالشيء أقوى دلالة من أبصر)[2] في سياق تفسيره قوله تعالى:(فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ) [القصص: ١١] لوجدنا أن ابن عاشور عمد إلى إثباته بحجج متنوعة تدعم معطاه:

---

[1] .اللغة والحجاج- أبو بكر العزاوي- ط٢- العمدة للطبع ٢٠٠٠م- ص١٦٦

[2] . التحرير والتنوير- ٨٣/٢٠

ح[١]١(الدلالة المعجمية): "بصُر بالشيء صار ذا بصر به، أي باصرًا له فهو يفيد قوة الإبصار[٢]".

ح٢(الدلالة التركيبية للباء الداخلة على المفعول):"باء السببية (به)؛ للدلالة على شدة العناية برؤية المرئي حتى كأنه صار باصرًا بسببه[٣]".

ح ٣(يجوّز رأيًا آخر في هذه الباء):"ولك أن تجعل الباء زائدة؛ لتأكيد الفعل؛ فتفيد زيادة مبالغة في معنى الفعل[٤]".

ح٤(الاستدعاءات النصية الداعمة): من سورة طه(قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ) [طه: ٩٦].

وبالطريقة ذاتها يحاول إثبات المعطى الدلالي لكلمة (الأجر). فليس هو من معنى إجارة الأجير[٥]، وذلك في سياق تفسيره قوله تعالى: (لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)[القصص: ٢٥]؛ فكانت حججه الإقناعية على النحو الآتي:

ح١:التفسير المعجمي للمفردة:"التعويض على عمل نافع للمعوّض[٦]".

ح٢: استدعاء نصي،من سورة محمد ؛يدعم الحجة الأولى:"ومنه سُمي ثواب الطاعات أجرًا [٧]، قال تعالى:(وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ)[محمد: ٣٦]

---

١ . (ح) رمز لكلمة (الحجة)

٢ . التحرير والتنوير- ٨٣/٢٠

٣ .التحرير والتنوير- ٨٣/٢٠

٤ . التحرير والتنوير-٨٣/٢٠

٥ .التحرير والتنوير- ١٠٤/٢٠

٦ . التحرير والتنوير- ٢٠-/١٠٤

٧ .التحرير والتنوير- ١٠٤/٢٠

ح٣:(الدلالة النحوية وتحديد نوع الجزاء):"وانتصب " أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا " على المفعول ؛ لبيان نوع الجزاء أنه جزاء خير، وهو أن أراد ضيافته[١]".

كما استعان ابن عاشور بالإضاءات المعجمية؛ محاولا إقناع متلقيه بترجيح أوجه بعينها من وجوه التفسير على غيرها، وهو ما يلحظه القارىء في سياق تفسيره قوله تعالى:(قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) [القصص: ٦٣]؛ فقد عمد إلى مجموعة من الحجج الإقناعية مستدعيًا مع كل حجة نصًّا يؤيد رأيه ويدعمه:

ح١(تفسير معجمي): "ومعنى: حق عليهم القول: تحقق وثبت ويكون القول قولًا معهودًا، وهو ما عهد للمسلمين[٢]". ومنه قوله تعالى:(لَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)[القصص: ١٣]، وقوله تعالى: (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ) [القصص: ١٩].

ح٢:تعليل وإيضاح للوجه التفسيري المرجح،" فالذين حق عليهم القول هم الذين حلَّ الإبّان الذي يحق عليهم فيه هذا القول[٣]."

ح٣: الدلالة العامة التي انبثقت عن هذا الوجه التفسيري"والمعنى: أن الله ألجأهم إلى الاعتراف بأنهم أضلوا الضالين وأغووهم. كما أثبت المعطى المعجمي للوجه التفسيري الثاني الذي يقضي بأن يكون (حقَّ) بمعنى وجب وتعيَّن[٤]، بحجتين: إحداهما: منطقية، وأخراهما:سياقية، على النحو الآتي:

---

١ . التحرير والتنوير- ١٠٤/٢٠

٢ . التحرير والتنوير- ١٥٧/٢٠

٣ . التحرير والتنوير- ١٥٧/٢٠

٤ .التحرير والتنوير- ١٥٧/٢٠

ح١: التعليل:" لأنهم علموا أن قوله تعالى: (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) [القصص: ٦٢]. موجّه إليهم؛ فلم يكن لهم بد من إجابته ذلك السؤال.

ح٢: الدلالة السياقية المترتبة على هذا الوجه المعجمي: ويكون المراد بالقول جنس القول، أي الكلام الذي يقال في ذلك المقام وهو الجواب عن الاستفهام بقوله:(أَيْنَ شُرَكَاءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ).

ويخلص من كلا الاحتمالين بأن:" الذين حقَّ عليهم القول هم أئمة الكفر كما يقتضيه قوله تعالى: (رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا) [القصص: ٦٣].

كما عني بالأوجه الإعرابية ودورها في إثبات معطياته الدلالية تلك التي تسهم في التأثير في متلقيه، يلحظ ذلك القارىء في سياق تفسيره قوله تعالى:(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[القصص: ٤٧] لإثبات معطى الاهتمام بدلالة التحذير من إصابة المصيبة[١]؛ فيذكر نوعي(لولا) في الآية الكريمة والأوجه التأويلية لما بعدها، على النحو المبيّن:

ح١: الدلالة النحوية للحرف(لولا) ولزومه الابتداء:"ولولا الأولى حرف امتناع لوجود، أي انتفاء جوابها لأجل وجود شرطها وهو حرف يلزم الابتداء[٢]".

---

١. التحرير والتنوير- ١٣٥/٢٠

٢. التحرير والتنوير- ١٣٥/٢٠

ح٢: وجوب حذف الخبر الواقع بعد لولا وتقديره بكون عام:" والخبر عن المبتدأ الواقع بعد(لولا) واجب الحذف وهو مقدر بكون عام والمبتدأ هنا هو المصدر المنسبك من (أن) وفعل(تصيبهم) والتقدير لولا إصابتهم بمصيبة([1])."، وتأتي الحجة الثالثة ؛ لتدعم السبك النصي الذي يظهر المراد ويوضحه، على النحو الآتي:

ح٣: المعطوف على الفعل المسبوك بمصدر وجب أن يدخل في الانسباك بمصدر:" وقد عقب الفعل المسبوك بمصدر بفعل آخر وهو" فيقولوا" فوجب أن يدخل هذا الفعل المعطوف في الانسباك بمصدر، وهو معطوف بفاء التعقيب([2])".

ح٤: استدعاء نصي يدعم أن المصدر المنسبك المعطوف(فيقولوا) هو المقصود:" فهذا المعطوف هو المقصود، مثل قوله تعالى:(أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) [البقرة: ٢٨٢]"([3]) وتأتي الحجة الإقناعية الخامسة حجة منطقية؛ إذ يعلل لنظم الكلام على هذا المنوال؛ قائلا:

ح٥:"وإنما حيك نظم الكلام على هذا المنوال ولم يقل: ولولا أن يقولوا ربنا...،إلخ، لنكتة الاهتمام من إصابة المصيبة؛ فوضعت في موضع المبتدأ دون موضع الظرف لتساوي المبتدأ المقصود من جملة شرط(لولا)؛ فيصبح

---

[1] . التحرير والتنوير- ١٣٥/٢٠

[2] . التحرير والتنوير- ١٣٦/٢٠

[3] .التحرير والتنوير- ١٣٧/٢٠

هو وظرفه عمدتين في الكلام([1])". وأخيرا حجته السادسة جاءت حاملة الدلالة العامة لمجمل تقدير القول:

ح٦:" ولولا إصابتهم بمصيبة يعقبها قولهم: (رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا)، لما عبأنا بإرسالك إليهم؛ لأنهم أهل عناد وتصميم على الكفر"[٢].

كما حرص على إبراز دور(الدلالة السياقية) في استجلاء المعنى وإضاءته وذلك في سياق إثباته المعطى الدلالي الذي يقضي بأن المفردة (الخير) في قوله تعالى:(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)[القصص: ٢٤] . المقصود بها- هنا- خيري الدنيا والآخرة([3]) مستندًا في ذلك إلى حجج دلالية؛ إذ يبدأ سلمه الإقناعي بالتفسير المعجمي للمفردة(الخير)

ح١:" الخير: ما فيه نفع وملاءمة لمن يتعلق هو به.([4])"، ثم يعدد أنواع الخير داعمًا تعدده بنصوص تؤيدها وتعضدها؛ فيقول:

ح٢:" فمنه خير الدنيا ومنه خير الآخرة الذي قد يُرى في صورة مشقة فإن العبرة بالعواقب، قال تعالى: (وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) [التوبة: ٨٥]"([5]) .

---

[1] . التحرير والتنوير- ١٣٧/٢٠

[2] . التحرير والتنوير- ٨٣/٢٠

[3] . التحرير والتنوير- ١٠١/٢٠

[4] . التحرير والتنوير- ١٠١/٢٠

[5] . التحرير والتنوير- ١٠١/٢٠

ح٣: تأكيد أن المراد خيرا الدنيا والآخرة ويسوق الدليل على ذلك: " وقد أراد النوعين كما يرمز إلى ذلك التعبير عن إيتائه الخير بفعل(أنزلت) المشعر برفعة المعطي.[١]"

ح٤: يعدد أنواع الخير الذي أنزله الله، عز وجل، على موسى، عليه السلام، ومنه:

- **أنعم الله عليه بالحكمة والعلم**
- **إنجاؤه من القتل**
- **تربيته الكاملة في ثراء الملك وعزته.**
- **حفظه من أن تتسرب إليه عقائد العائلة التي رُبي فيها؛ فكان منتفعًا بمنافعها مجنبًا رذائلها وأضرارها.**
- **جعل نصر قومه على يده.**
- **هداه إلى منجى من الأرض، ويسَّر له التعرف ببيت نبوة[٢].**

كما اتخذ ابن عاشور(المجاز) وسيلة[٣] للإقناع وحرصَ على إبراز دوره التأثيري في المتلقي؛ فكشف عن دور (المجاز العقلي) الذي يقضي بإسناد

---

١ . التحرير والتنوير- ١٠١/٢٠

٢ . التحرير والتنوير- ١٠٢/٢٠

٣ . وفي هذا السياق ،يؤكد الشهري أهمية المجاز لدى مرسل الخطاب ؛إذ يستخدمه ؛بغية تحديد دلالاته وإيضاحها للمتلقي، قائلا:" وتنتج آلية المجاز في عملية ذات مرحلتين: تفكيك فإعادة، وهي الآلية التي تخدم قصد المرسل عند التعمية على من يفقه اللغة في مواصفاتها الأصل، بقصد حصر الدلالة في أفق ضيق في الوقت نفسه؛ لئلا يفقهها غير المرسل إليه المقصود بالخطاب، وتسمى هذه الآلية بآلية التشفير." إستراتيجيات الخطاب- ص١٨٥

الفعل إلى غير ما هو له في الظاهر[١]؛ فأكثَرَ منه وجعله مرتكزًا خطابيًّا ؛ فنراه متدرجًا في سلمه الإقناعي؛ ليثبت معطى أن التلاوة أسندت إلى الله، عز وجل، إسنادًا مجازيًّا وذلك في سياق تفسيره قوله تعالى :" نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى " بحجتين اثنتين مؤيدتين بآية سورة البقرة:

ح١: التعليل:" لأنه- المولى عز وجل- الذي يأمر بتلاوة ما يوحى إليه من الكلام[٢]".

ح٢: الإشارة إلى الفاعل الحقيقي:" والذي يتلو حقيقة هو جبريل بأمر من الله".

ح٣: استدعاء نصي يدعم الحجتين السابقتين: "هذا كقوله تعالى:(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ) [البقرة: ٢٥٢][٣] ،ويسوق حجتين يثبت بهما معطى إسناد التصديق إلى هارون، عليه السلام، إسنادًا مجازيًّا.

ح١:التعليل:" فإسناد التصديق إلى هارون مجاز عقلي؛ لأنه سببه[٤]."

ح٢: الكشف عن المسند إليهم التصديق حقيقة: " والمصدقون حقيقة هم الذين يحصل لهم العلم بأن موسى صادق فيما جاء به"[٥]. ويستمر مرسل الخطاب

---

١ . ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع- أحمد الهاشمي(ت١٣٦٢هـ)- ضبط وتدقيق: يوسف الصهيلي- المكتبة العصرية – بيروت –د.ت – ينظر أيضًا: معجم البلاغة العربية- بدوي طبانة- ط٣- دار المنارة – جدة ١٩٨٨م- ص٤٣٦

٢ . التحرير والتنوير- ٦٤/٢٠

٣ . التحرير والتنوير- ٦٤/٢٠

٤ . التحرير والتنوير- ١١٦/٢٠

٥ . التحرير والتنوير- ١١٦/٢٠

التفسيري في الكشف عن دور(المجاز) في إقناع المتلقي والتأثير فيه، وتحديدًا دور (الاستعارة) في ذلك،كما ظهر في سياق تفسيره قوله تعالى:(فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ)[القصص: ٤٠]؛ليثبت معطى عظمة شأن المولى، عز وجل، وحقارة شأن هؤلاء المنبوذين([1]) وذلك في حالتي حمل(الأخذ) على الحقيقة أو المجاز، بالحجتين الآتيتين:

ح١:"لو حُمِل الأخذ على المجاز؛ فهو استعارة مكنية: شبهه هو وجنوده بحصيات أخذهن في كفه فطرحهن في البحر([2])".

ح٢: لو حُمل الأخذ على حقيقته كان فيه استعارة مكنية أيضًا؛ لأنه يستتبع تشبيهًا بقبضه تؤخذ باليد([3]).

ويكشف عن دور(التشبيه التمثيلي) في التأثير في المتلقي وإقناعه وإفهامه في سياق تفسيره قوله تعالى:(أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ)[القصص: ٥٤]؛محاولا إثبات معطى مضاعفة الأجر ضعفين بتكراره مرتين([4]).

ح١:الدلالة العامة:" أي أنهم يؤتون أجرين على إيمانهم، أي يضاعف لهم الثواب لأجل أنهم آمنوا بكتابهم من قبل ثم آمنوا بالقرآن([5])".

---

[1] . التحرير والتنوير- ١٤٥/٢٠

[2] . التحرير والتنوير- ١٤٥/٢٠

[3] . التحرير والتنوير- ١٢٥/٢٠

[4] .التحرير والتنوير- ١٤٥/٢٠

[5] . التحرير والتنوير- ١٤٥/٢٠

ح٢: تفصيل الوجه المجازي:"فعبر عن مضاعفة الأجر ضعفين بالمرتين تشبيهًا للمضاعفة بتكرير الإيتاء وإنما هو إيتاء واحد([١])".

ح٣:فائدة المجاز" إظهار العناية حتى كأن المثيب يعطي ثم يكرر عطاءه([٢])".

ويجمع ابن عاشور بين الوجهين المجازيين(الاستعارة والمجاز العقلي) ويجوزهما معا في سياق تفسيره قوله تعالى:(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ)؛ ليبرهن على معطى إثبات المجيء إلى الحق وذلك بالحجج الإقناعية الآتية:

ح١: الدلالة السياقية التي توضح المراد من كلمة(الحق):" هو ما في القرآن من الهدى[٣]."

ح٢: استعارة مكنية:" وإثبات المجيء إليه استعارة بتشبيه الحق بشخص وتشبيه سماعه بمجيء الشخص[٤]."

ح٣: مجاز عقلي وتعليله لهذا الوجه: " أو هو مجاز عقلي وإنما الجائي الرسول الذي يبلغه عن الله؛ فعبر عنه بالحق لإدماج الثناء عليه في ضمن الكلام[٥]."

فعناية ابن عاشور بالآليات البلاغي وإلقاؤه الضوء على دورها الإقناعي؛ مردُّه إلى إيمانه بازدواج دورها، إقناعًا وإمتاعًا في الوقت ذاته ؛الأمر الذي

---

[١] . التحرير والتنوير- ١٤٥/٢٠

[٢] . التحرير والتنوير- ١٤٥/٢٠

[٣] .التحرير والتنوير-١٤٤/٢٠

[٤] .التحرير والتنوير- ١٤٥/٢٠

[٥] . التحرير والتنوير- ١٥٥/٢٠

يجعلها " أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطب وتوجيه سلوكه لما يهبها هذا الإمتاع من قوة في استحضار الأشياء، ونفوذ في إشهادها للمخاطب؛ كأنه يراها رأي العين"[١].

نخلص مما سبق أن ابن عاشور في خطابه التفسيري لسورة القصص كان حريصًا على التنويع في العناصر اللغوية والبلاغية التي أسهمت في تحديد دلالاته وضبط حركاتها داخل خطابه، وقلصت احتمالات تسرب دلالات مغايرة للمعنى المراد، كما دعمت، في الوقت ذاته، مراميه المقاصدية في محاولة منه لانعكاس ذلك على عملية التأثير في المتلقي؛ فيجعله يقتنع بآرائه ويؤمن بها ومن ثم يتحقق الهدف الأساس من العملية التواصلية.

المطلب الثاني: الوظيفة (الميتالسانية) للخطاب التفسيري في سورة القصص وكفايتها التواصلية:

إن إيماء مرسل الخطاب إلى مقاصده الخطابية أو المعنى الثاوي خلف المعنى الذي يحدده الوضع اللغوي، والكشف عنه من أهم الوظائف اللغوية على الإطلاق؛ إذ إن:" المقاصد هي لُب العملية التواصلية؛ لأنه لا وجود لأي تواصل عن طريق العلامات دون وجود قصدية وراء فعل التواصل"[٢].

وتعدُّ هذه الوظيفة بمنزلة الإجابات الاستباقية للأسئلة الافتراضية التي قد تجول بخاطر متلقي الخطاب؛ بوصفه أحد طرفي العملية التواصلية، من مثل: ماذا تقصد بخطابك؟، وماذا يعني كلامك؟

---

[١] . في أصول الحوار وتجديد علم الكلام- طه عبد الرحمن- ص٣٨

[٢] .إستراتيجيات الخطاب- الشهري- ص١٨٣

وقد أشار عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ) إلى أهمية هذه الوظيفة التواصلية؛ فعقد لها فصلًا كاملًا في كتابه العبقري (دلائل الإعجاز) أسماه" في اللفظ يطلق ويراد به غير ظاهره"[١]. وجاءت نظرية التواصل اللغوي متمركزًا مسعاها حول تلك القضية المهمة التي تؤكد أن المعاني ليست في الأدوات اللغوية الموظفة في الخطاب إنما تكمن لدى مرسل الخطاب في توظيفه هذه الأدوات بطرائق شتى؛ تحقيقًا لمقاصده الخطابية ومراميه المعنوية.

ويفسر بعض المحدثين هذه الوظيفة، بتوضيح أطرافها وآلياتها حيث إن:"المتكلم أو السامع كثيرًا ما يحتاجان إلى التأكد من أنهما يستخدمان الشفرة نفسها، وهذا ما يجعل المتكلم يركز على الشفرة والسامع يسأل عنها، كأن يقول السامع: أنا لا أفهم ما تعني، ماذا تريد أن تقول؟ أو يقول المتكلم:" أريد أن أقول أنَّ...، أو أقصد ...،أو أعني...، أو أستخدم هذه الكلمة أو تلك العبارة بهذا المفهوم وتلك هي الوظيفة المسماة (ميتالغوية) (Meta-linguistic Function) "[٢].كما مايزوا بين مستويين من الكلام،"هما: الكلام عن الأشياء، والكلام عن الكلام أو ما يسمى"ميتالغة"[٣].

والمتأمل في الخطاب التفسيري لسورة القصص يلحظ عناية مرسله بمستوى الكلام عن الكلام أو ما وراء لغة خطابه؛ فقد دأب في بعض المواضع على التعقيب على خطابه التفسيري بإجمال ما استنبطه من عظات وعبر ومقاصد

---

[١] .دلائل الإعجاز-عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ)- تح: محمود محمد شاكر- ط٣- مطبعة المدني – القاهرة ١٩٩٢م- ص٦٦

[٢] . علم الأسلوب وصلته بعلم اللغة- صلاح فضل- م٧-ع١(١٩٨٤م)- مصر-ص٥٥

[٣] . علم الأسلوب وصلته بعلم اللغة- ص٥٢

خطابية من تفسيره ربما لا يتمكن القارىء العادي من بلوغها؛ إذ كان حريصًا على إظهارها والكشف عنها؛ مراعاة لحال متلقيه وما قد يجول بخلدهم من تساؤلات واستفسارات؛ فينصُّ نصًّا على ما ثوى خلف أدواته اللغوية من معانٍ كامنة وأغراض مستلزمة يمكن تصنيفها إلى مجموعة من الأفعال الإنجازية المستلزمة؛ وفقًا لتصنيف (سيرل)[1] إلى: الإخباريات- التوجيهيات- التعبيريات- الإلتزاميات.

- **الإخباريات**[2]:

إن معيار الإخبار في الخطاب التفسيري لسورة القصص ليس الصدق والكذب وإنما المعيار هو إرادة المرسل[3].نلمس ذلك من تعقيب مرسل الخطاب على تفسيره للآيات الكريمة بمجموعة من العظات والعبر المستنبطة، التي تضمنت أمورًا ذات شأن إصلاحي وتربوي وفقهي وعلمي؛ ففيها ذكرى للمؤمنين وعظة وعبرة للمشركين. فالمتأمل للآيات الكريمة المتوالية يلحظ أنها ترصد طغيان فرعون وفساده وعلوه في الأرض في تتابع قوله تعالى:(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ

---

[1] .آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر- محمود نحلة- ص٤٩

[2] . الإخباريات: أفعال إنجازية يتكون غرضها الإنجازي بوصف المتكلم واقعة معينة تحتمل الصدق أو الكذب واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى الواقع.- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر – محمود نحلة – ص٤٨

[3] .ينظر: إستراتيجيات الخطاب- الشهري- ص١٩٥

وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[القصص: ٤-١٣].

يلاحظ أن ابن عاشور قد عمد إلى التعقيب على الآيات الكريمة بمجموعة من الأغراض الإخبارية المتضمَّنة في خطابه، ومنها:

- **أن ما قدّره الله وما علمه وما أراده -سبحانه وتعالى- متحقق وكائن لا محالة، كما دلَّ عليه قوله تعالى:(وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱستُضعِفُواْ فِي ٱلأَرضِ).**
- **إن علو فرعون وجبروته وفساده لم يصرف عنه سوء عاقبته ولم يغن عنه من الله شيئا؛ فكان عبرة لجبابرة المشركين من أهل مكة على وجه خاص، وعبرة لكل جبار في الأرض على وجه العموم، وأن العلو الحق لله رب العالمين ولرسله وللمؤمنين.**
- **إن وجود الأشخاص الصالحين بين المفسدين يخفف من فساد المفسدين**

"فوجود امرأة فرعون كان سببًا في صد فرعون عن قتل الطفل"[1].

- إن الله بالغ أمره؛ فقد هيّأ- سبحانه وتعالى- الأسباب المفضية إليه؛إذ"لو شاء لأهلك فرعون ومن معه بحادث سماوي ولما قدَّر لإهلاكهم هذه الصورة المرتبة، ولكنه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقلات الأحوال ابتداء من إلقاء موسى في اليم إلى أن ردَّه إلى أمه"[2].

كما أقرَّ مرسل الخطاب في تفسيره للآيات الكريمة التي تصور مشهد قصة موسى مع القبطي الذي وكزه؛ فقضى عليه:(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[القصص: ١٤-٢١].

---

[1] . التحرير والتنوير- ٨٦/٢٠

[2] .التحرير والتنوير- ٨٦/٢٠

فقد أقرَّ مجموعة من الإخباريات المتضمنة في خطابه القولي، ومنها:

- إن نصر الله لمن اصطفاهم من عباده آتٍ لا محالة،وإنجاءه إياهم من مكائد أعدائهم، واقع لا شك في ذلك.
- إن الله يعلم حيث يجعل رسالاته، ويصطفي من يشاء من عباده ويهيىء الأسباب المفضية إلى ما تعلقت به إرادته- سبحانه وتعالى- فيظهره بأتقن تدبير.
- أكد أن الرسل- عليهم جميعًا الصلاة والسلام- صادقون في دعوتهم، ومن مظاهر ذلك استقامة سيرتهم ومحبتهم للحق من قبل البعثة، وهو ما جرى على لسان موسى، عليه السلام، (فلن أكون ظهيرًا للمجرمين).

- **التوجيهيات**[1]:

إن طبيعة الخطاب الديني تقضي بأن يكون لازم فعله القولي نصحًا وإرشادًا، أمرًا أو نهيًا، ترغيبًا أو ترهيبًا؛ وهو ما يسعى ابن عاشور إلى إدراكه ومحاولة إبرازه لمتلقي خطابه التفسيري؛ فالمتأمل في الآية الكريمة، سالفة الذكر، التي رصدت جبروت فرعون وفساده في الأرض يلحظ سعيه الدءوب إلى توعية متلقيه بحزمة من النواهي تضمنتها قصة ذبح فرعون لأبناء بني إسرائيل، واستحياء نسائهم؛ حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة، وحتى لا يتحقق توقع الكهنة بأن زوال ملكه سيكون على يد أحد أبناء بني إسرائيل؛ فهذا يعدُّ

---

[1] . التوجيهيات: هي أفعال كلامية يستعملها المتكلم ليجعل شخصا آخر يقوم بعمل ما. ينظر :التداولية- جورج يول- تر:د.قصي العتابي- ط١- الدار العربية للعلوم ناشرون- ٢٠١٠م- ص٩٠

استئصالًا لأمة كاملة " لتوقع مفسد فيها لعدم التوازن بين المفسدتين؛ ولأن الإحاطة بأفراد أمة كاملة متعذرة؛ فلا يكون المتوقع فساده إلا في الجانب المغفول عنه من الأفراد؛ فتحصل مفسدتان هما أخذ البرىء وانفلات المجرم"[1]. فلازم هذا الفعل القولي يقضي بأن مرسل الخطاب قد عمد إلى ترهيب متلقيه بنهيه عن التجبر في الأرض والفساد فيها بكل صوره وأشكاله ؛لما لهذا السلوك المشين من عواقب وخيمة قد تمتد إلى المجتمع بأكمله كما تودي بصاحبها إلى الهلاك والخسران المبين في الدنيا والآخرة.

كما بدا الترغيب واضحًا، بوصفه غرضًا إنجازيًّا استلزمته قصة موسى مع شعيب، عليهما السلام، وهو ما رصدته الآيات الكريمة: (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) [القصص: ٢٢-٢٨].

---

[1] .التحرير والتنوير- ٢٠/٨٧

فقد حثَّ ابن عاشور في تفسيره لهذا التسلسل الحدثي الحواري الذي عرضته الآيات الكريمة حثَّ متلقيه على التأسي بالأسوة الحسنة والأخلاق الطيبة لأهل النبوة والصلاح، كما أومأ بخطابه القولي إلى مقايسة أحوال النبيين موسى ومحمد – عليهما الصلاة والسلام– وما تحلى به نبينا– عليه الصلاة والسلام – من زكي الخصال الحميدة والصفات الطيبة وزكاء السريرة، والصدق، والأمانة، وتزوجه بأفضل امرأة من نساء قومه. "فكلها علامات وبوارق لانهطال سحاب الوحي والتكليف، والله أعلم حيث يجعل رسالته"[١]. فكلها صفات يرغب مرسل الخطاب في إظهارها لمتلقيه ؛ ليتحلى بها متخذًا المصطفين الأخيار أسوة حسنة وقدوة طيبة.

- **التعبيريات**[٢]:

كشف ابن عاشور عما تضمنته قصة موسى وشعيب، عليهما السلام، التي صورت مشهدها الحواري الآيات الكريمة– سالفة الذكر– من أغراض تعبيرية بوحية، تومىء إلى المدح بحميد الخصال وكريمها؛ فقد هيَّأ الله لموسى،عليه السلام، أسباب تلقي الرسالة فساقه إلى فضائل الأعمال ووسمه بمناقب أهل الكمال وقلَّبه في أطوار الفضائل، ومنها:

– مصاهرة رسول من رسل الله ومعاشرته فترة من الزمن.

---

[١] .التحرير والتنوير– ٢٠/١١١.

[٢] . التعبيريات: أفعال إنجازية يعبر بها المتكلم عن حالات نفسية ، مثل: الحزن أو الألم أو الفرح أو المدح أو الذم. ينظر: التداولية – جورج يول– ص٩٠

- منحه الله عز وجل خصال المروءة والفتوة من مثل:(إغاثة الملهوف- الرأفة بالضعيف- الزهد والقناعة- الشكر الدائم لرب العالمين على نعمه- العفاف- الوفاء بالعقد- الثبات على العهد)
- كشف مرسل الخطاب عن خصال النبوة عند شعيب،عليه السلام، منها(حُب القِرى- تأمين الخائف- الرفق في المعاملة).
- **الإلتزاميات**[1]:

برزت جلية في إشارات ابن عاشور إلى ما تضمنته آيات سورة القصص من وعد الله أنبياءه ومن اتبعهم من المؤمنين بأن نصرهم لا محالة حاصل وأن جزاءهم الجنة بما قدموا وتسلية قلب نبيه، عليه الصلاة والسلام، الذي كان حزينًا لخروجه من مكة، كما تضمنت وعيد الله للمشركين وأن عقابهم لا مفر لهم منه ؛ فهو حتمًا ملاقيهم. كما بدا ذلك واضحًا ومتجسدًا في مشاهد تنقلات أحوال موسى ،عليه السلام، بدءًا من إلقائه في اليم وهو رضيع ورده إلى أمه ،ثم جعله من المرسلين؛ فهو تسلية للنبي محمد،ﷺ، بانتقال أحوال دعوته إلى مدارج القوة والنفوذ، وأن ما وعده الله واقع لا محالة. كما أشار إلى وعد الله، عز وجل، المستضعفين في الأرض بأن سيجعلهم أئمة ويورثهم ما كان لفرعون وذلك في سياق تفسيره قوله تعالى: (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱستُضعِفُواْ فِي ٱلأَرضِ وَنَجعَلَهُم أَئِمَّةً وَنَجعَلَهُمُ ٱلوَٰرِثِينَ)[القصص: ٥].محدِدا مظاهر تحقق هذا الوعد ومفصلًا القول في ذلك: "فأما جعلهم أئمة فذلك بأن أخرجهم من ذل

---

[1] . وتعني اصطلاحًا: إلزام المتكلم نفسه بفعل مستقبلي أو تعبير المتكلم عن نيته القيام بعمل معين".ينظر: التداولية- جورج يول ص٩٢

العبودية وجعلهم أمة حرة مالكة أمر نفسها لها شريعة عادلة وقانون معاملاتها وقوة تدفع بها أعداءها ومملكة خالصة لها وحضارة كاملة تفوق حضارة جيرتها بحيث تصير قدوة للأمم في شؤون الكمال وطلب الهناء؛ فهذا معنى جعلهم أئمة؛ أي يقتدي بهم غيرهم ويدعون الناس إلى الخير وناهيك بما بلغه ملك إسرائيل في عهد سليمان، عليه السلام. أما جعلهم الوارثين فهو أن يعطيهم الله ديار قوم آخرين ويحكمهم فيهم"[١]. وفي السياق ذاته يشير مرسل الخطاب إلى وعيد الله لفرعون وجنوده بالهلاك على يد نبيه موسى،عليه السلام (وَنُرِىَ فِرعَونَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنهُم مَّا كَانُواْ يَحذَرُونَ) [القصص: ٦]. فقد كانوا يحذرون "زوال ملكهم بسبب رجل من بني إسرائيل حسبما أنذره بذلك الكهان"[٢].

كما ألقى ابن عاشور الضوء على وعد الله ،عز وجل، موسى ،عليه السلام، بأن يجعل أخاه من أسباب قوته ويصرف عنهما أذى فرعون وقومه موضحًا ذلك ومؤكدًا عليه في سياق تفسيره قوله تعالى:(قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجعَلُ لَكُمَا سُلطَـٰنا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلغَـٰلِبُونَ) [القصص: ٣٥] . فلم يستجب الله لدعوة موسى فحسب، بل زاده تفضلا بما لم يسأله؛ "فاستجابة الدعوة الثانية بقوله: (سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ) واستجابة الأولى بقوله:(فَلَا يَصِلُونَ إِلَيكُمَا) والتفضل بقوله (وَنَجعَلُ لَكُمَا سُلطَـٰنا) فأعطى موسى ما يماثل ما لهارون من المقدرة على إقامة الحجة"[٣].

---

١ . التحرير والتنوير- ٢٠/٧١

٢ . التحرير والتنوير- ٢٠/٧١

٣ . التحرير والتنوير- ٢٠/١١٧

كما أشار ابن عاشور إلى ما ختم الله ،عز وجل ،به قصة قارون وما آل إليه أمره ببيان وعده، سبحانه وتعالى، المؤمنين الذين لا يتكبرون عن اتباع الحق ولا يفسدون في الأرض ويمتثلون لأوامر الله ويجتنبون نواهيه ويعملون الطاعات تاركين المعاصي والمحرمات؛ ابتغاء مرضاته ،عز وجل، واتقاء لعذابه؛ فنجده يسوق ربطًا بالتضاد الموضوعي يبرز ما تحقق من وعيد الله للمفسدين المتكبرين وما سيتحقق من وعده، تبارك وتعالى، للمؤمنين ،وذلك في سياق تفسيره قوله تعالى:(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) [القصص: ٨١-٨٣] .

فيصل المفسِّر إلى عرض نهاية الحدث الحواري بتوجيهه نحو دائرة الحكمة وإضاءة الذهن إلى القصدية الحدثية بقوله: "انتهت قصة قارون بما فيها من العبر من خير وشر ؛ فأعقبت باستئناف كلام عن الجزاء وضده في الحياة الأبدية وأنها معدة للذين حالهم بضد حال قارون مع مناسبة ذكر الجنة بعنوان الدار لذكر الخسف بدار قارون للمقابلة بين دار زائلة ودار خالدة"[١].

وبناء على ما سبق، يمكن القول بأن الخطاب التفسيري لسورة القصص عند ابن عاشور قد حفل بمظاهر الوعد والوعيد والمزاوجة بينهما؛ وذلك ترغيبًا للمؤمنين المتقين المتبعين أنبياء الله المصدقين دعوتهم الصابرين على الأذى،

---

١ . التحرير والتنوير – ٢٠/ ١٨٩

الحامدين الله في السراء والضراء ؛ فهؤلاء قد وعدهم الله أن لهم الجنة. وترهيبًا للمفسدين في الأرض، والمتجبرين والمستكبرين عن عبادته، تبارك وتعالى، من سوء عاقبتهم ؛ فيسوق لهم أمثالًا من أمم هلكت وحق عليها العذاب بسبب تكبرهم وتجبرهم وفسادهم في الأرض وتكذيبهم أنبياء الله؛ فتوعدهم الله، عز وجل، بالهلاك والخسران المبين في الدنيا والآخرة.

المطلب الثالث: الوظيفة النصية الإبلاغية في الخطاب التفسيري لسورة القصص وكفايتها التواصلية.:

إن غاية اللغة الأسمى هي تحقيق التواصل بين متكلميها ولا يكون هذا التواصل ممكنا إلا إذا كان المتلقي واعيًا بمقصد مرسل الخطاب ولا يتم هذا ،غالبا، إلا إذا تحقق الترابط والتلاحم بين أفكار خطابه؛ فيكون كلا متآزرًا يؤدي أوله إلى آخره ، وسابقه إلى لاحقه في تناغم وانسجام ودون غموض أو لبس، وليس مجرد رصف لعبارات وجمل ؛فالالتحام النصي يتحقق بالترابط المفهومي والعلاقات التي تربط بين المعاني؛ كما يدعم التفاعل بين المعلومات داخل النص والمعرفة السابقة بالعالم[١].

أدرك ابن عاشور قيمة التوظيف الإبلاغي التواصلي للتلاحم النصي، وأهميته في إيضاح الصورة وتقريبها إلى ذهن متلقيه بأوجز الطرق وأدقها، وتحقيقًا لذلك؛ اتخذ الربط لديه سبيلين:

أولا– الربط الموضوعي بين قصتي موسى ومحمد، عليهما الصلاة والسلام:

---

[١] .النص والخطاب ولإجراء – روبرت دي بوجراند– ص١٠٣

تـأتي مقبوليـة الخطاب،غالبـا، مـن خـلال ربـط الموضـوعات والحـالات المتشابهة –أو التماثل الموضوعي– بين أفكاره والوقائع الخارجية؛ الأمر الذي يعين على تقريب الصورة في أذهان المتلقين وإقناعهم ويسهم في تحقيق الكفايته التواصلية للخطاب .فقد استثمر ابن عاشور خلفياته المعرفية في الربط بين الموضوعات المتشابهة؛ مؤكدًا تلاحمها وتوافقها وتعالقها داعمًا بذلك فكرته؛ الأمر الذي يسهم في إنجاح التواصل وكفايته. وقد بدا ذلك واضحًا في إدراك التلاحم الضمني بين قصتي موسى ومحمد، عليهما الصلاة والسلام؛ فقد نزلت السورة الكريمة– كما أقرَّ بذلك مرسل الخطاب في مستهل تفسيره لها[1]– تسلية للنبي، ﷺ، وطمأنة لقلبه المحزون قبيل هجرته، ﷺ، بما لاقاه موسى،عليه السلام، من أذى فرعون وقومه وإنكارهم رسالته، وتكذيبهم ما جاء به مؤكدًا أن الغلبة في النهاية لله ولرسوله ولمن اتبعه من المؤمنين؛ فقد كتب الله على فرعون وجنوده الهلاك في الدنيا وهو في الآخرة من المقبوحين؛ فكذلك حال من يكذب دعوة محمد ،ﷺ، ويستكبر على اتباعه، ولم يهتد بهديه؛ فلا ينبغي لنبي الله أن يجزع أو ييأس؛ فنصر الله، عز وجل، آتيه ومن اتبعه لا محالة وسيرجع مكة فاتحًا منتصرًا.

فالمتأمل في الخطاب التفسيري لسورة القصص يلحظ أن مرسله قد برع في الربط بين قصتي موسى ومحمد، عليهما الصلاة والسلام، من زوايا نظر متعددة؛ لاتفاق مقصديهما في دعوتيهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتوجيه أقوامهما إلى ما فيه خيري الدنيا والآخرة وتذكيرهم، وتزكية نفوسهم وتطهيرها

---

[1] . التحرير والتنوير– ٦٣/٢٠

من براثن الشرك ، متخذًا قصة موسى مع قومه عبرة وعظة لمشركي قريش المكذبين للنبي، محمد ﷺ، موظفًا وحدة السياق التواصلي التفاعلي في الربط الموضوعي وإظهار أوجه الشبه بين النبيين، عليهما الصلاة والسلام وبين قوميهما، بدءًا من مرحلة تلقي الوحي وكيفيته وحالهما وقتذاك؛ فيقول في هذا السياق:" وأن رسالة محمد،ﷺ، كرسالة موسى جاءته بغتة فنُودي محمد في غار جبل حراء كما نودي موسى في جانب الطور، وأنه اعتراه من الخوف مثل ما اعترى موسى، وأن الله ثبته كما ثبت موسى، وأن الله يكفيه أعداءه كما كفى موسى أعداءه"[1]. مرورًا بالأطوار التي تقلبت فيها دعوتيهما، عليهما الصلاة والسلام، على النحو الآتي:

- إنكار دعوة موسى ومحمد، عليهما الصلاة والسلام، وما ترتب عليها من هجرتيهما.

واجه موسى عليه السلام إنكارًا لدعوته وصدودًا وإعراضًا وطغيانًا من فرعون وقومه كما واجه محمد ﷺ، من بعده، إنكارًا مشابهًا من مشركي مكة ؛إذ زعموا أن دعوته جاءت بعد فترة من الرسل وادّعوا أنهم لم يعرفوا مثل هذا من قبل هم ولا آباؤهم الأولون؛ فجاءت الآية الكريمة: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) [القصص: ٤٣]؛ " لإبطال تعجب المشركين من رسالة محمد وقد أتت بعد فترة من الرسل؛ فذكرهم بأن الله أرسل موسى كذلك بعد فترة عظيمة وأن الذين أُرسل إليهم موسى أثاروا مثل هذه الشبهة؛ فقالوا:(مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا

---

[1] . التحرير والتنوير – ٢٠/١١٨

الْأَوَّلِينَ) [القصص: ٣٦] [١]"، وكذلك:" ليقاس النظير على النظير؛ فقد كان المشركون يقولون مثل ذلك يريدون إفحام الرسول، عليه الصلاة والسلام، بأنه لو كان الله أرسله حقًّا لكان أرسل إلى الأجيال من قبله ، ولما كان الله يترك الأجيال التي قبلهم بدون رسالة رسول ثم يرسل إلى الجيل الأخير؛ فكان قوله: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) ؛إتمامًا لتنظير رسالة محمد، ﷺ، برسالة موسى، عليه السلام، في أنها جاءت بعد فترة طويلة لا رسالة فيها [٢]." كما أومأ ابن عاشور إلى أحداث لم يصرح بها منجزه القولي رابطًا بينها وبين ما صرّح به ، وذلك في سياق تفسيره قوله –تعالى–: (إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) [القصص: ٢٠]"؛ إذ يقول:" الآية إيماء إلى أن رسوله، صلى الله عليه وسلم، **سيخرج من مكة وأن الله منجيه من ظالميه"[٣].**

- حال مشركي مكة المتعاظمين بأموالهم وحال نظرائهم من الأمم السابقة:

وظف ابن عاشور الوحدة المضمونية، والتماثل الموضوعي – الحاصل بين حالي مشركي مكة وحال أمثالهم من الأمم السابقة– في توجيه العظة والعبرة للمشركين المتعاظمين بأموالهم بحال نظرائهم من الأمم السابقة؛ فقد ضرب الله مثلا للمشركين" بحال قارون مع موسى وإن مَثل قارون صالح أن يكون مثلا لأبي لهب ولأبي سفيان بن عبد المطلب قبل إسلامه في قرابتهما من النبي

---

[١] .التحرير والتنوير– ١٣١/٢٠

[٢] . التحرير والتنوير– ١٣١/٢٠

[٣] .التحرير والتنوير– ٩٧/٢٠

وأذاهما إياه...، والوليد بن المغيرة من التعاظم بماله وذويه قال تعالى:(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا)[المدثر: ١١-١٣] "التي نزلت في الوليد بن المغيرة[١]".

- **استكبار فرعون واستكبار المشركين المكذبين برسالة محمد**،صلى الله عليه وسلم:

أظهر الربط الموضوعي في الخطاب التفسيري لسورة القصص قدرة مرسله على الكشف عن الوحدة المضمونية، والتماثل الموضوعي بين استكبار فرعون واستكبار المشركين المكذبين برسالة محمد،ﷺ؛ فكما طمع فرعون أن يبلغ إلى ربه ويطلع إليه آمرًا وزيره هامان أن يبني له صرحًا كذلك سأل المشركون نبيهم أن ينزل عليهم ملائكة أو يروا ربهم؛ فقالوا: (لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا) [الفرقان: ٢١] ؛ فقد "ظنوا أنهم لا يرجعون إلى الله كما ظن أولئك فيوشك أن يصيبهم من الاستئصال ما أصاب أولئك"[٢].

- **سوء عاقبة المكذبين**:

استثمر مرسل الخطاب لازم منطوقه القولي في المقايسة الموضوعية بين سوء عاقبة فرعون وقومه وذلك في سياق تفسيره قوله تعالى:(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) [القصص: ٤٠]؛ "ليعتبر المشركون بسوء عاقبتهم لأجل ظلمهم أنفسهم بالكفر وظلمهم الرسول

---

١ . التحرير والتنوير- ١٤٤/٢٠

٢ . التحرير والتنوير- ١٢٦/٢٠

بالاستكبار عن سماع دعوته، يقول:" فيقيسوا حال دعوة محمد،ﷺ، بحال دعوة موسى عليه السلام، ويقيسوا حالهم بحال فرعون وقومه؛ فيوقنوا بأن ما أصاب فرعون وقومه من عقاب سيصيبهم لا محالة"[1].

ثانيا: العلاقات الإحالية بين منطوقات الخطاب التفسيري والوقائع الخارجية:

إن الإلمام بقضايا الخطاب التفسيري وفهم أحداثه لا يقتصر على إدراك العلاقات الضمنية بين قضاياه الداخلية فحسب، بل الأمر يتطلب مراعاة العلاقات الإحالية بين المنطوقات القولية للخطاب، والقضايا المماثلة في الواقع الخارجي؛ ومن ثم يفترض (فان دايك) أن القضايا التي تشكلها الجمل والعبارات والأطر الدلالية في الخطاب ترتبط بوحدات أخرى في العالم الخارجي؛ إذ "ترتبط قضيتان بعضهما ببعض حين ترتبط معانيهما الإحالية؛ أي تكون الوقائع التي تحيل إليها القضايا في تفسير ما مرتبطة بعضها ببعض"[2]؛ الأمر الذي أدركه ابن عاشور في خطابه التفسيري لسورة القصص وذلك من زوايا متعددة على النحو الآتي:

- الاستدلال على دقائق الإعجاز القرآني بالوقائع الخارجية:

القارىء في سياق تفسيره قوله تعالى :(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) [القصص: ٧] يلحظ أنه أحال إلى وقائع خارجية تبرهن على دقائق

---

[1] . التحرير والتنوير- ١٢٥/٢٠

[2] . علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات- فان دايك- تر: سعيد بحيري- ص٥٣

الإعجاز القرآني في الآية الكريمة وتربط منطوق الخطاب بمحيطه الخارجي ،في الآنِ ذاته؛ فيذكر ما رُوي عن الأصمعي[١] أنه سمع جارية أعرابية تنشد:

أَسْتَغْفِـرُ اللَّهَ لِذَنْبِي كُلِّهِ ... قَبَّلْتُ إِنْسَانًـا بِغَيْرِ حِلِّهِ
مِثْلَ الْغَزَالِ نَاعِمًا فِي دَلِّهِ ... فَانْتَصَفَ اللَّيْلُ وَلَمْ أُصَلِّهِ

وهي تريد التورية بالقرآن. فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك! يريد: ما أبلغك! ؛ فقالت له:" أو يعد هذا فصاحة مع قوله تعالى:(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) [القصص: ٧] . فجمع في آية واحدة خبرين وأمرين ونهيين وبشارتين[٢].";فقد شكّلت الإحالة إلى واقعة خارج السياق اللغوي لهذا الخطاب التفسيري،حَكَمَ فيها الأصمعي بفصاحة تلك المرأة ، شكّلت قوة استدلالية داعمة ومعضدة لتوجه الخطاب التفسيري وكاشفة ،في الوقت نفسه، عن الدلالات الحقيقية للآية الكريمة ومقلصة للاحتمالات الدلالية الأخرى؛ الأمر الذي من

---

١ . ذُكرت الرواية في تفسير القرطبي(ت٦٧١هـ)- ونصها:" حَكَى الْأَصْمَعِيُّ قَالَ سَمِعْتُ جَارِيَةً أَعْرَابِيَّةً تُنْشِدُ وَتَقُولُ:
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِذَنْبِي كُلِّهِ ... قَبَّلْتُ إِنْسَانًا بِغَيْرِ حِلِّهِ
مِثْلَ الْغَزَالِ نَاعِمًا فِي دَلِّهِ ... فَانْتَصَفَ اللَّيْلُ وَلَمْ أُصَلِّهِ
فَقُلْتُ: قَاتَلَكِ اللَّهُ! مَا أفصحك! فقالت: أو يعد هَذَا فَصَاحَةً مَعَ قَوْلُهُ تَعَالَى :﴿وَأَوْحَيْنا إلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الْآيَةَ، فَجَمَعَ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ بَيْنَ أَمْرَيْنِ وَنَهْيَيْنِ وَخَبَرَيْنِ وَبِشَارَتَيْنِ." ينظر تفسير القرطبي- الإمام القرطبي(أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ت٦٧١هـ)- ضبطه ودققه: سالم مصطفى البدري- م٢/٣٨٥

٢ . التحرير والتنوير- ٢٠/ ٧٧

شأنه إيضاح الغامض وتقريب صورته في ذهن المتلقي ومنح الخطاب مقبوليته ومن ثم كفايته التواصلية.

- **الاستدلال على الجواز اللغوي بالوقائع الخارجية**:

استحضر ابن عاشور وقائع خارج خطابه التفسيري تبرهن على جواز أن تكون عبارة(قرة عين) قسمًا كما يقال: ايمن الله، يلاحظ ذلك في سياق تفسيره قوله تعالى:(قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ) [القصص: ٨] ؛ "فيذكر ما رُوي أن أبا بكر الصديق استضاف نفرًا وتأخر عن وقت عشائهم ثم حضر، وفيه قصة إلى أن قال الراوي: فجعلوا لا يأكلون لقمة إلا ربت من أسفلها أكثر منها؛ فقال أبو بكر لامرأته: يا أخت بني فراس ما هذا؟ فقالت: وقرة عيني إنها الآن أكثر من قبل"[1]. مستدِلا بذلك على أن امرأة فرعون أقسمت عليه ألا يقتل موسى ومحيلا في الوقت ذاته إلى وقائع خارجية منحت خطابه تعزيزا وتأثيرا ومقبولية.

---

[1] . التحرير والتنوير ١٦٧/٢٠ – والرواية وردت في صحيح مسلم– كتاب الأشربة– باب إكرام الضيف وفضل إيثاره– حديث رقم:٣٩٤٨ ونصها:" عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال: "إِنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كَانُوا أُنَاسًا فُقَرَاءَ، وأَنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ مَرَّةً: مَن كانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بثَالِثٍ، ومَن كانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بخَامِسٍ أوْ سَادِسٍ أوْ كما قالَ: وأَنَّ أبَا بَكْرٍ جَاءَ بثَلَاثَةٍ، وانْطَلَقَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعَشَرَةٍ، وأَبُو بَكْرٍ ثَلَاثَةً، قالَ: فَهو أنَا وأَبِي وأُمِّي، ولَا أدْرِي هلْ قالَ: امْرَأَتي وخَادِمِي، بيْنَ بَيْتِنَا وبيْنَ بَيْتِ أبِي بَكْرٍ، وأَنَّ أبَا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثُمَّ لَبِثَ حتَّى صَلَّى العِشَاءَ، ثُمَّ رَجَعَ فَلَبِثَ حتَّى تَعَشَّى رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَجَاءَ بَعْدَ ما مَضَى مِنَ اللَّيْلِ ما شَاءَ اللَّهُ، قالَتْ له امْرَأَتُهُ: ما حَبَسَكَ عن أضْيَافِكَ أوْ ضَيْفِكَ؟ قالَ: أوَعَشَّيْتِهِمْ؟ قالَتْ: أبَوْا حتَّى تَجِيءَ، قدْ عَرَضُوا عليهم فَغَلَبُوهُمْ، فَذَهَبْتُ فَاخْتَبَأْتُ، فَقالَ يا غُنْثَرُ، فَجَدَّعَ وسَبَّ، وقالَ: كُلُوا، وقالَ: لا أطْعَمُهُ أبَدًا، قالَ: وايْمُ اللَّهِ، ما كُنَّا نَأْخُذُ مِنَ اللُّقْمَةِ إلَّا رَبَا مِن أسْفَلِهَا أكْثَرُ منها حتَّى شَبِعُوا، وصَارَتْ أكْثَرَ ممَّا كَانَتْ قَبْلُ، فَنَظَرَ أبو بَكْرٍ فَإِذَا شيءٌ أوْ أكْثَرُ، قالَ لِامْرَأَتِهِ: يا أُخْتَ بَنِي فِرَاسٍ، قالَتْ : لا ←←←

- **الاستدلال على جواز الوجه الفقهي بالوقائع الخارجية**

استدلَّ ابن عاشور على التزام شعيب، عليه السلام، بتزويج ابنته موسى، عليه السلام، بشرط عقد الإجارة بينهما بما ورد في السنة النبوية المطهرة ، وذلك في سياق تفسيره قوله تعالى:(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)[القصص: ٢٦]؛ إذ يقول:" والمسألة أصلها من السنة حديث المرأة التي عرضت نفسها على النبي،ﷺ، فلم يتزوجها وزّوجها من رجل كان حاضرًا مجلسه، ﷺ، ولم يكن عنده ما يصدقها فزوجه إياها بما معه من القرآن أي أن يعلمها إياه"(١). فهذا الحدث الذي وقع في مجلس المصطفى،ﷺ، قد اتخذه مرسل الخطاب دليلًا على جواز شرط عقد الإجارة في الزواج وذلك بالربط بين منطوق خطابه التفسيري، ووقائع خارج هذا الخطاب؛ الأمر الذي يعضد آراءه ويدعمها، ويسهم في قبول خطابه وإقناع متلقيه برأيه التفسيري.

- **التحذير من سوء العاقبة بأحداث من الواقع الخارجي**.

→→→

وقُرَّةِ عَيْنِي، لَهي الآنَ أكْثَرُ ممَّا قَبْلُ بثَلَاثِ مَرَّاتٍ، فأكَلَ منها أبو بَكْرٍ وقالَ: إنَّما كانَ الشَّيْطَانُ، يَعْنِي يَمِينَهُ، ثُمَّ أكَلَ منها لُقْمَةً، ثُمَّ حَمَلَهَا إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأصْبَحَتْ عِنْدَهُ، وكانَ بيْنَنَا وبيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ، فَمَضَى الأجَلُ فَتَفَرَّقْنَا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، مع كُلِّ رَجُلٍ منهمْ أُنَاسٌ، اللَّهُ أعْلَمُ كَمْ مع كُلِّ رَجُلٍ، غيرَ أنَّه بَعَثَ معهُمْ، قالَ: أكَلُوا منها أجْمَعُونَ، أوْ كما قال.".

١ . التحرير والتنوير- ٢٠/١٠٧ – وفي صحيح البخاري – حديث رقم ٥٠٢٩- عن سهل بن سعد الساعدي قال:" أَتَتِ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ امْرَأَةٌ، فَقَالَتْ: إنَّهَا قدْ وهَبَتْ نَفْسَهَا لِلَّهِ ولِرَسولِهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقَالَ: ما لي في النِّسَاءِ مِن حَاجَةٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: زَوِّجْنِيهَا، قَالَ: أعْطِهَا ثَوْبًا، قَالَ: لا أجِدُ، قَالَ: أعْطِهَا ولو خَاتَمًا مِن حَدِيدٍ، فَاعْتَلَّ له، فَقَالَ: ما معكَ مِنَ القُرْآنِ؟ قَالَ: كَذَا وكَذَا، قَالَ: فقَدْ زَوَّجْتُكَهَا بما معكَ مِنَ القُرْآنِ."

في سياق تفسيره قوله تعالى:(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) [القصص: ٥٨]. حيث يستحضر ابن عاشور أمرًا نبويًّا صدر حين مرَّ، ﷺ، في طريقه إلى تبوك بحجر ثمود؛ فقال:" لا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا باكين "[1]، "أي: خائفين؛ اقتصارًا على ضرورة المرور؛ لئلا يتعرضوا إلى تحقق حقيقة السكنى، التي قدر الله انتفاءها بعد قومها فربما قدر إهلاك من يسكنها تحقيقًا لقدره"[2]. وعليه فإن هذا الربط الإحالي من شأنه تأكيد اللحمة بين منطوق الخطاب التفسيري وبين الواقع الخارجي ؛الأمر الذي يسهم في مقبولية الخطاب ،ويبرز مقصد الآية الكريمة وهو تخويف قريش وترهيبهم من سوء عاقبة أقوام كانوا في مثل حالهم من الأمن والنعيم والرزق الوفير ؛فغمطوا النعمة، وقابلوها بالبطر والكفران والاستكبار.

- **خوف بعض المشركين من اتباع النبي والاستحياء من تكذيبه**:

حدد ابن عاشور فريقًا من المشركين الذين منعهم حياؤهم تكذيبَ النبي، صلى الله عليه وسلم، والمجاهرةَ بذلك، كما منعهم إلفُهم الكفر الإقرارَ بهديه،ﷺ، وأن ما أتى به حق. الأمر الذي أبرزه سياق تفسيره قوله

---

[1] . الحديث في: شرح النووي على مسلم- كتاب الزهد والرقائق- دار الخير للطباعة- ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م- ج١٨- ص٤٠٦- رقم الحديث(٢٩٨٠) ، ونصه:" حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة بن سعيد وعلي بن حجر جميعا عن إسمعيل قال ابن أيوب حدثنا إسمعيل بن جعفر أخبرني عبد الله بن دينار أنه سمع عبد الله بن عمر يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحاب الحجر لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم"

[2] .. التحرير والتنوير- ١٥١/٢٠

تعالى:(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا)[القصص: ٥٧] فقد استحضر حدثًا صوَّره ابن عباس-رضي الله عنهما- بقوله:" أن الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف وناسًا من قريش جاءوا النبي،ﷺ، فقال الحارث" إنا لنعلم أن قولك حق، ولكنا نخاف إن اتبعنا الهدى معك ونؤمن بك أن يتخطفنا العرب من أرضنا ولا طاقة لنا بهم وإنما نحن أكلة رأس (أي: جمعنا يشبعه الرأس الواحد من الإبل وهذه كناية عن القلة)"[١].

إن الاستعانة بهذه الاستدعاءات النصية المحيلة إلى وقائع خارج سياق الخطاب التفسيري ؛من شأنها الإسهام في تحقق مقبولية الخطاب بوصفها أحد معايير نصيته، وبالنسبة إلى مرسل الخطاب تمنحه قوة استدلالية معضدة لآرائه التفسيرية ومرجحة لرأي على آخر .كما تعين متلقي الخطاب على استكشاف مقاصده الحقيقية ، وتأكيد المعنى ورسوخه في ذهنه، واستبعاد احتمالات دلالية أخرى قد تشوش الصورة وتشتت الانتباه، فضلا على دورها الإقناعي وقوتها التأثيرية.

---

[١] . التحرير والتنوير – ١٤٨/٢٠ – وقد ذكر الواحدي في أسباب النزول ما نصه:" نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف ، وذلك أنه قال للنبي – صلى الله عليه وسلم- : إنا لنعلم أن الذي تقول حق ، لكن يمنعنا من اتباعك أن العرب تتخطفنا من أرضنا لإجماعهم على خلافنا ، ولا طاقة لنا بهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية. " ينظر: أسباب النزول- الواحدي(أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد ت ٤٦٨هـ)- ضبطه وصححه: محمد عبد القادر شاهين- دار الكتب العلمية- ٢٠٠٠م- ص١٧٦

رابعاً: الخاتمة (النتائج والتوصيات) :

ارتكزت بؤرة هذه المعالجة البحثية حول عناصر الموقف التواصلي وتوظيفها في الكفاية التواصلية بوصفها ركائز رئيسة تنهض عليها نظرية التواصل اللغوي، وقد حاول البحث إيضاح هذه العناصر في المنجز التفسيري لسورة القصص عند ابن عاشور وبيان مظاهر ذلك؛ فأسفر عن مجموعة من النتائج والتوصيات، جاءت على النحو الآتي:

أ) نتائج الدراسة:

- إن محاولات التقعيد والتأسيس للعملية التواصلية وعناصرها اللغوية وغير اللغوية على حدٍ سواء تلك التي تعدُّ مرتكزات رئيسة تنهض عليها نظرية التواصل اللغوي؛ تعدُّ توجهًا لسانيا بحثيا يمنح اللغة فاعليتها ويعيد لها مرونتها ويؤكد كونها ظاهرة اجتماعية ليست منعزلة عن المحيط الاستعمالي لها وهذا أدعى لإثراء علاقة النسيج اللغوي الداخلي للخطاب بالواقع الخارجي ،ويمنح مرسل الخطاب حرية التعبير عن بواطن المعاني الكامنة في خطابه التي يرغب في إيصالها إلى متلقيه بسبل لغوية وغير لغوية متنوعة. كما يكسب المتلقين القدرة على استكشاف تلك المعاني الثاوية خلف منطوق مرسل الخطاب التي تمنحه قوة تأثيرية تجعله يذعن أو يرفض ،يرغب عن أو يرغب في، يمدح أو يذم،وغير ذلك.
- خلص البحث إلى تعريف مجمل للكفاية التواصلية ؛إذ يراها: تفاعل عناصر الخطاب اللغوي في سياق تواصلي معين يشمل (المرسِل و المرسَل إليه، والرسالة، والسياق بنوعيه: اللغوي وغير اللغوي) تفاعلًا يمزج بين القدرة

اللغوية والقدرة التواصلية وينجم عنه فهم المرسَل إليه ما يريد أن يقوله المرسِل.

- نهضت الكفاية التواصلية للخطاب التفسيري لسورة القصص بعبء التعبير عن حصيلة المنجز المعرفي لمرسِل الخطاب(ابن عاشور) وخلفياته العلمية المتنوعة وأظهرت مدركه بتوظيف الآليات اللغوية وغير اللغوية التي تخدم الموقف التواصلي لخطابه التفسيري.
- أدرك ابن عاشور دور الحوار- بوصفه عنصرًا مهمًا من عناصر الكفاية التعبيرية للخطاب- الذي دار بين شخوص الحدث الكلامي في سورة القصص؛ فوصفه وصفًا دقيقًا جعله يُرى ببداهة ووضوح، ومن ثم جعل متلقي الخطاب يشهد الوقائع المحكية ويراها رأي العين؛ مما يسهم في انبعاث انفعالات حية في ذهن المتلقي؛ تحقق الوظيفة التأثيرية المنشودة ومن ثم الكفاية التواصلية للخطاب.
- كشف الخطاب التفسيري لسورة القصص أن القوى التعبيرية للمشاهد الحوارية قد أبرزت سمات شخوص الحدث الكلامي ،المهتدين منهم والضالين؛ بغية التأثير في المتلقي بالترغيب في الخير؛ لنيل الجزاء الأوفى، والترهيب من الشر ؛ لتجنب سوء العاقبة.

كما أبرزت بوضوح سمات مرحلتي حياة موسى، عليه السلام، المرحلة الأولى: حياته في مصر قبل التوجه إلى مدين، ثم المرحلة الثانية: حياته في مدين واستقراره عند نبي الله شعيب،عليه السلام، حتى انقضاء الأجل الذي تعاهدا عليه؛ ففي الأولى: اتخذت الصيغة التعبيرية للمشاهد الحوارية المجالات الدلالية ذات الدلالة على الخوف والقلق والضلال والتآمر والقتل والظلم ، وغير

ذلك مما بدا واضحًا من الضمائم اللغوية المنطوقة على ألسنة المتحاورين ،من مثل:(قصّيه- وهم لا يشعرون- لا تقتلوه- رجلين يقتتلان- عدو مضل مبين- غوي مبين- استغاثه- فقضى عليه- يأتمرون بك- ليقتلوك- اخرج)، ثم تأتي المرحلة الثانية مرحلة حياته في مدين واستقراره عند نبي الله شعيب ،عليه السلام، وقد حملت المنطوقات القولية لمشاهدها الحوارية الدلالة على الاستقرار والسكينة والطمأنينة وإنزال الخير على موسى، عليه السلام، بزواجه من ابنة شعيب،عليه السلام، هذه الدلالات التي صورتها الضمائم اللغوية التي وردت على ألسنة المتحاورين، مثل:(أبونا شيخ كبير -ليجزيك- جاءته- لاتخف- نجوت من القوم الظالمين- استأجره- القوي الأمين- أنكحك إحدى ابنتي- تأجرني ثماني حجج- ما أريد أن أشق عليك- ستجدني إن شاء الله من الصالحين- فلا عدوان علي).

- عُني مرسل الخطاب بمنجزه التعبيري وبصورته المنهجية التي ارتآها في تفسيره سورة القصص، وقد أظهرتُ معالمها في مجموعة من النقاط لاحظتُها من قراءتي المتكررة ، ومنها:

- كشف ابن عاشور عن العلاقات الدلالية بين سورة القصص والسور الأخرى التي ذُكرت فيها قصة موسى، عليه السلام؛ فيؤكد أن سورة القصص اشتملت على تفصيل ما أُجْمِل في سورتي الشعراء والنمل.
- أوضح أن المقصد الأساس من وراء سوق قصص الأوليين العبرة والعظة والتحلي بالصبر والثبات من ناحية وتسلية قلب النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، والذين آمنوا معه من ناحية أخرى.

- عُني بتفسير المفردات القرآنية في السورة الكريمة موضحًا أحكامها المعجمية والنحوية والبلاغية، مع حرصه في ذلك كله على استحضار نصوص من القرآن والسنة ومن الشعر العربي يعضد بها آراءه ويستدل بها على صحة وجه تفسيري دون غيره.
- كما دعم ابن عاشور رؤيته الإصلاحية باستلهام العبر من آيات سورة القصص؛ فيذكر أن السورة ابتدئت بأسباب هلاك فرعون؛ ليعلم المؤمنون علل الأشياء ومعلولاتها ويتخذونها طريقة يسيرون عليها في شؤونهم. كما أكد أن وجود الصالحين مع المفسدين يخفف من فساد هؤلاء المفسدين ويضرب مثلا بامرأة فرعون التي كانت سببًا في صد فرعون عن قتل موسى عليه السلام.

- حمل المنجز التعبيري للخطاب التفسيري لسورة القصص كثافة مقاصدية تتجاوز الحدود المعجمية إلى بواطن النفس البشرية وجميع مظاهر السلوك الإنساني وذلك وفق ما اقتضته مرتكزات النظرية التواصلية الوظيفية من ضرورة النظر إلى الخطاب من زوايا علاقته بمرسِلِه.
- أثبت البحث أن أمر العناية بالمحيط الاستعمالي للخطاب ليس مقتصرًا على مرسله فحسب بل يتجاوز ذلك إلى متلقيه؛ فإن له الدور نفسه الذي يمنحه القدرة على التنبؤ بما يمكن قوله أو فعله.
- وظَّف مرسل الخطاب عنصر الزمن بوصفه محدِدًا دلاليًّا ومرتكزًا زمانيًّا يحول دون تسرب الاحتمالات الدلالية إلى ذهن متلقي الخطاب ،ويسهم في كفاية الخطاب التواصلية، وذلك من جانبين:

- الأول: تحديد التوقيت الزمني للحدث الكلامي والعلة من اختياره كما ظهر من تفسيره لقوله تعالى:(عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ)[القصص: ١٥] .

- الثاني: ترتيب الأحداث وربط بعضها ببعض كما رأينا في سياق تفسيره قوله تعالى:(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى)[القصص: ١٤] .
- كما لم يغفل البنى الصرفية مؤكدًا دورها في تحديد دلالة الكلمات الدالة على الزمن،كما مرَّ في تفسيره للصيغة (الحِجج)،في قوله تعالى: (عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ)

- شكَّل المكان- بوصفه عنصرًا مهما من عناصر السياق التواصلي- في هذا الخطاب التفسيري إطارًا له فاعلية خاصة تحرك الأحداث وتقوم بدور وظيفي في مجرياتها ودلالتها؛ ومرد ذلك إلى طبيعته الشمولية ؛ فإن على أرضه تتآلف الأحداث والشخوص المحركة لها والزمن الذي يجمعهم؛ الأمر الذي نهض بتصويره الخطاب التفسيري لسورة القصص ؛بغية التحديد الدلالي وإحكام الخطاب. وقد تبلورت مظاهر عناية ابن عاشور بعنصر المكان في مجموعة من النقاط، لعل أبرزها:

- تأكيد دور السياق في التحديد الدلالي للضمائم اللغوية ذات الدلالة على المكان كما في تحديده المراد بالأرض في قوله تعالى: (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)[القصص: ٨١] .
- الكشف عن دور العلاقات الدلالية بين الضمائم اللغوية ذات الدلالة على المكان ولا سيما ما قد يوقع المتلقي منها في لبس أو تشتت.
- لم يغفل دور اللواصق التصريفية في إيضاح الدلالة المرادة وتحديدها.
- عُني بالتحديد الجغرافي للكلمات ذات الدلالة على المكان؛ مما يعكس حرصه على إيضاح دلالاته وإيصالها تامة لمتلقيه.
- حرصه على التأصيل الاشتقاقي للكلمات ذات الدلالة على المكان وتأصيلها من كلام العرب كما مر في كلمة (اليم).

- ذكر العلة من وراء التحديدات المكانية في السورة الكريمة، كما مرَّ في تقسيره قوله تعالى: (مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ).
- التعريف ببعض الضمائم اللغوية الدالة على المكان كما في تعريفه لفظة (القرية) ورصده نماذج من قرى العرب.
- تحديد مقدار المسافات التي تفصل بين المدن بالميل وبالزمن أيضا كما في تحديده المسافة بين مصر ومدين سيرًا على الأقدام.
- الإشارة إلى ما اصطلح عليه المسلمون من جعل القبلة هي الجهة الأصلية لضبط المواقع الجغرافية كما في (شاطىء الواد الأيمن).

- كشف الخطاب التفسيري عن الأبعاد السياسية في سورة القصص التي تمثلت في طبيعة العلاقة بين الحاكم(فرعون) والمحكومين (الرعية) كما أبرز أهم مظاهر فساده التي كانت سببًا في هلاكه وهلاك قومه وجنوده، ومنها:(الفساد في الأرض- العلو والتجبر- فرَّق بين رعاياه وأغرى بينهم العداوة- ذبح الذكور من أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم- البطانة الفاسدة (هامان وجنوده)).
- أظهر الخطاب التفسيري للسورة الكريمة الأبعاد الاجتماعية وأبرز دورها في الكشف عن سمات شخوص الحدث الكلامي وعلاقتها ببعضها ،كما أبرز العادات الاجتماعية المتباينة والمتشابهة بين الأمم والشعوب التي عكستها سلوكيات الشخصيات ومعتقداتهم؛ فظهرت شخصية موسى ،عليه السلام، الذي رفض القتل ورآه فعلا مستقبحًا حتى من قبل أن يُبعثَ، عليه السلام، رسولا، وتظهر على الجانب الآخر شخصية فرعون الذي استحلّ ذبح أبناء بني إسرائيل؛ ليحافظ على ملكه وتبقى السلطة له ولقومه. فقد أدرك ابن عاشور أن خطابه التفسيري شأنه شأن أي خطاب آخر يعدُّ موقفًا اجتماعيًّا

تواصليًّا إبلاغيًّا يعكس ثقافة المجتمع الفكرية وعاداته وتقاليده، وصدى لمعتقدات أفراده وسلوكهم والتناقضات بين شخصياتهم وطبقاتهم الاجتماعية التي تتفاوت المنطوقات اللغوية في التعبير عنها.

- **ألمح ابن عاشور إلى الأبعاد النفسية ومكنونات نفوس شخوص الحدث الكلامي، ودواخلهم المتباينة بتباين الأحداث والمعتقدات؛ فقد غرف من معين القرآن الكريم الذي لا ينضب؛فهو أصدق خطاب يرسم الملامح الداخلية للنفس البشرية ومكنوناتها ويعلم ما تسر وتعلن ،وأثر ذلك في المحيطين بها؛ فهذه النفوس المذكورة في القرآن الكريم لها أشباه ونظائر لم تذكر فيه يتوجب عليهم أن يتعظوا ويعتبروا بمن سبقهم وحق عليهم القول.**
- أكد البحث أن الخطاب قد يؤدي أكثر من وظيفة ينهض كل عنصر من عناصره بإحداها؛ فالعنصر الذاتي أو ما يخص مرسل الخطاب ينهض بالوظيفية المقاصدية التي تتمثل في التعبير عن معتقدات المتكلم ومقاصده واهتماماته ورغباته؛ فقد نصَّ ابن عاشور نصًّا صريحًا على ما ثوى خلف منطوقاته القولية من معانٍ كامنة وأغراض إنجازية مستلزمة تم تقسيمها حسبما اقتضته طبيعة خطابه إلى:الإخباريات- التوجيهيات- التعبيريات- الالتزاميات. أما العنصر المقابل أو الطرف الآخر من طرفي العملية التواصلية(متلقي الخطاب)؛ فينهض بالوظيفة التأثيرية الإقناعية؛ إذ إن الهدف من أي خطاب – منطوقًا كان أو مكتوبًا- يحمل في طياته شحنة حجاجية هو إقناع المتلقي؛ فلم يُدرج منهج ابن عاشور في تفسيره على القمع ولم يكتسِ صبغة الإكراه إنما اتَّبع سبلًا لغوية شتى لإقناع متلقيه وتدرَّج بها في سلمه الإقناعي شيئا فشيئا ؛ ليثبت معطاه المعجمي أو النحوي أو المجازي ؛فقد كان حريصًا على

التنويع في العناصر اللغوية والبلاغية التي أسهمت في تحديد دلالاته وضبط حركاتها داخل خطابه، وقلصت احتمالات تسرب دلالات مغايرة للمعنى المراد، كما دعمت، في الوقت ذاته، مراميه المقاصدية في محاولة منه للتأثير في المتلقي؛ فيجعله يقتنع بآرائه ويؤمن بها ومن ثم يتحقق الهدف الأساس من العملية التواصلية. كما أدى الخطاب التفسيري وظيفة نصية تواصلية تخصُّ الرسالة ذاتها وتسهم في كفايتها التواصلية الإبلاغية تلك الوظيفة التي تؤكد اللُحمة بين موضوعات الخطاب وموضوعات أخرى مشابهة؛ فصرَّح بالربط الموضوعي بين قصتي موسى ومحمد، عليهما السلام، من نواحٍ متعددة:(كيفية تلقي النبيين الوحي وحالهما وقتذاك- إنكار دعوتيهما- حال مشركي مكة المتعاظمين بأموالهم وحال نظرائهم من الأمم السابقة أمثال قارون- استكبار فرعون وصدوده عن دعوة موسى عليه السلام، واستكبار مشركي مكة وإعراضهم عن دعوة محمد ،عليه الصلاة والسلام- سوء عاقبة المكذبين من الفريقين.) كما لم يغفل مرسل الخطاب العلاقات الإحالية بين منطوقات خطابه التفسيري والوقائع الخارجية؛ فقد استعان بها في الاستدلال على ما يأتي:

- **دقائق الإعجاز القرآني كما مر ذلك في سياق الآية الكريمة:(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) [القصص: ٧] التي تضمنت خبرين وأمرين ونهيين وبشارتين.**
- **الاستدلال على جواز الوجه اللغوي كما مرَّ في تأكيده أن (قرة عين) قسم مثل ايم الله.**

- الاستدلال على جواز الوجه الفقهي وهو أن يعرض الرجل مولاته على من يرغب في الزواج منها.
- التحذير من سوء العاقبة وخوف بعض المشركين من أن يتخطفوا من أرضهم إذا اتبعوا النبي، صلى الله عليه وسلم، والاستحياء من تكذيبه كما في حكاية نوفل بن الحارث التي عرضها الواحدي في أسباب النزول.

ب) التوصيات:

بناءً على ما نوقش في هذه الرؤية البحثية التي أكدت أن الخطاب التفسيري يعدُّ موقفًا تواصليًّا له عناصره ومرتكزاته وأبعاده التعبيرية والمقاصدية والتأثيرية؛ أوصي الباحثين في حقل اللسانيات:

- أن يولوا الخطاب التفسيري للقرآن الكريم عنايتهم ويجعلونه منطلقًا للوصول إلى وظيفته التأثيرية في المتلقين، بوصفه مرجعًا لهم على اختلاف مستوياتهم الاستيعابية.
- الاعتناء بتوظيف النظرية التواصلية في سبر خصائص السياقات التراثية ؛فهي معين ثر لتطبيق النظريات اللسانية الحديثة.
- أن يولوا الأبعاد السياسية والاجتماعية والنفسية عنايتهم، ولا سيما في الخطابات التفسيرية للقرآن الكريم.

والله ولي التوفيق

- خامساً: قائمة المصادر والمراجع

أولا- المصادر:

- التحرير والتنوير – الطاهر بن عاشور التونسي (١٣٩٣هـ)- – الدار التونسية للنشر- تونس ١٩٨٤ –(الجزء العشرون تفسير سورة القصص).

ثانيا- المراجع:

- أسباب النزول- الواحدي (أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد ت ٤٦٨هـ)- ضبطه وصححه: محمد عبد القادر شاهين- دار الكتب العلمية- ٢٠٠٠م.
- إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية- عبد الهادي الشهري- ط١- دار الكتاب الجديد المتحدة- بيروت٢٠٠٤م.
- استقبال النص عند العرب- محمد المبارك- ط٢- المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ١٩٩٩م .
- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر- محمود نحلة- دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية ٢٠٠٢م .
- آليات التداولية في الخطاب :الخطاب الأدبي أنموذجًا- عبد القادر عواد- مجلة علامات- ج٧٤- مج١٩- النادي الأدبي الثقافي- جدة – يوليو ٢٠٠١م.
- بدائع الفوائد- ابن قيم الجوزية(محمد بن أبي بكر بن مسعد بن شمس الدين ت٧٥١هـ) –دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان- د.ت.
- تحليل الخطاب-ج.ب براون-ج.ب يول- ترجمة وتعليق: محمد لطفي الزليطي- منير التريكي- جامعة الملك سعود- النشر العلمي والمطابع١٩٩٧م.
- التداولية- جورج يول- تر:قصي العتابي- ط١- الدار العربية للعلوم ناشرون- ٢٠١٠م.

- تفسير القرطبي- الإمام القرطبي (أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ت٦٧١هـ)- ضبطه ودققه: سالم مصطفى البدري.
- التفكير اللغوي بين القديم والحديث- كمال بشر- دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة٢٠٠٥م.
- التواصل اللغوي مقاربة لسانية وظيفية(نحو نموذج لمستعملي اللغات الطبيعية- ط٢- مكتبة لبنان ناشرون- بيروت ٢٠١٢م.
- التواصل نظريات ومقاربات- جاكبسون، مونان، هابرماس وآخرون- تر: عز الدين الخطابي وزهور حوتي- تصدير: عبد الكريم غريب- منشورات عالم التربية- ط١- الدار البيضاء ٢٠٠٧م.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع- أحمد الهاشمي(ت١٣٦٢هـ)- ضبط وتدقيق: يوسف الصهيلي- المكتبة العصرية – بيروت –د.ت.
- الحقوق اللغوية: حق اللغة في الوجود والبقاء والتطور والنماء والوحدة- عبد الهادي بو طالب- د.ط – دار الكتاب ٢٠٠٣م .
- الخصائص- ابن جني(أبو الفتح عثمان ت ٣٩٢هـ)- تح: محمد علي النجار- ط٤- المكتبة العلمية- القاهرة ١٩٩٩م.
- دلائل الإعجاز- الجرجاني (عبد القاهر ت٤٧١هـ) - تح: محمود محمد شاكر- ط٣- مطبعة المدني – القاهرة ١٩٩٢م.
- ديوان المتلمس- رواية الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي- تحقيق وتعليق حسن كامل الصيرفي-طبعة معهد المخطوطات العربية جامعة الدول العربية، القاهرة- ١٩٧٠م
- ديوان امرىء القيس- تح: عبد الرحمن المصطاوي- ط٢- دار المعرفة – بيروت ٢٠٠٤م.

- شرح النووي على مسلم- كتاب الزهد والرقائق- دار الخير للطباعة- ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- صحيح البخاري- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري(ت ٢٥٦هـ)- ط٥ - تحقيق: مصطفى ديب البغا- دار ابن كثير- دار اليمامة دمشق -١٩٩٣م.
- علم الأسلوب وصلته بعلم اللغة- صلاح فضل- م٧-ع١- مصر-١٩٨٤م.
- علم اللغة- حاتم الضامن- مطبعة التعليم العالي- بغداد ١٩٨٩م.
- علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات- فان دايك- تر: سعيد بحيري- دار القاهرة للكتاب-القاهرة- ط١ -٢٠٠١م .
- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام- طه عبد الرحمن- ط٢- المركز الثقافي العربي- المغرب ٢٠٠٠م.
- في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم- خليفة بوجادي- ط١- بيت الحكمة للنشر والتوزيع- الجزائر- ٢٠٠٩م.
- في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم- خليفة بوجادي- ط١- بيت الحكمة للنشر والتوزيع- العلمة- الجزائر- ٢٠٠٩م.
- قضايا الشعرية- رومان جاكبسون- تر: محمد الولي ومبارك حنوز- دار توبقال- الدار البيضاء ١٩٨٨م.
- الكفاية التواصلية بين تعددية النماذج وتناص الدلالة(دراسة في تأصيل المصطلح)- خالد حسين أبو عمشة- دار كنوز المعرفة- يناير ٢٠٢١م- (ص ص١٧٤-١٨٣).
- اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري- أحمد المتوكل- منشورات دار عكاظ- ١٩٨٩م.

- اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها- نايف خرما وعلي حجاج- سلسلة عالم المعرفة- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- د.ت.
- اللغة – فندريس- تعريب: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص- مطبعة لجنة البيان العربي- مكتبة الأنجلو- القاهرة ١٩٩٥م.
- اللغة العربية معناها ومبناها- تمام حسان- دار الثقافة- القاهرة ١٩٩٤م.
- اللغة والحجاج- أبو بكر العزاوي- ط٢- العمدة للطبع ٢٠٠٠م.
- اللغة والمجتمع- م. لويس- تر: إبراهيم أنيس وتمام حسان- دار إحياء الكتب العربية – مصر ١٩٥٩م.
- محاضرات في الألسنية العامة- دي سوسير- تر: يوسف غازي ومجيد النصر- منشورات المؤسسة الجزائرية للطباعة- ١٩٨٦م.
- مدخل إلى علم العلامات في اللغة والمسرح- عصام الدين أبو العلا- الهيئة العامة للكتاب- القاهرة- د.ت.
- المعاجم اللغوية في ضوء علم اللغة الحديث- محمد أحمد أبو الفرج- دار النهضة العربية- القاهرة ١٩٦٦م.
- معجم البلاغة العربية- بدوي طبانة- ط٣- دار المنارة – جدة ١٩٨٨م.
- معجم اللغة العربية المعاصرة-أحمد مختار عمر- ط١- عالم الكتب- القاهرة ٢٠٠٨م.
- مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية قراءة في شروح التلخيص للخطيب القزويني- صابر الحباشة- ط١- صفحات للدراسات والنشر- سوريا ٢٠٠١م.
- المقدمة – ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد ت١٤٠٦م) – تحقيق، درويش الجويدي- المكتبة العصرية –صيدا، لبنان، د.ت

- منهج البحث بين التراث وعلم اللغة الحديث- علي زوين- ط١- دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد ١٩٨٦م.
- المنهج الوظيفي في البحث اللساني- أحمد المتوكل- ط١- منشورات الاختلاف- الجزائر ٢٠١٦م.
- النص والخطاب والاتصال- محمد العبد- الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي- القاهرة - ٢٠١٤م.
- النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي- فان دايك- تر: عبد القادر قنيني- أفريقيا الشرق- المغرب٢٠٠٠م.